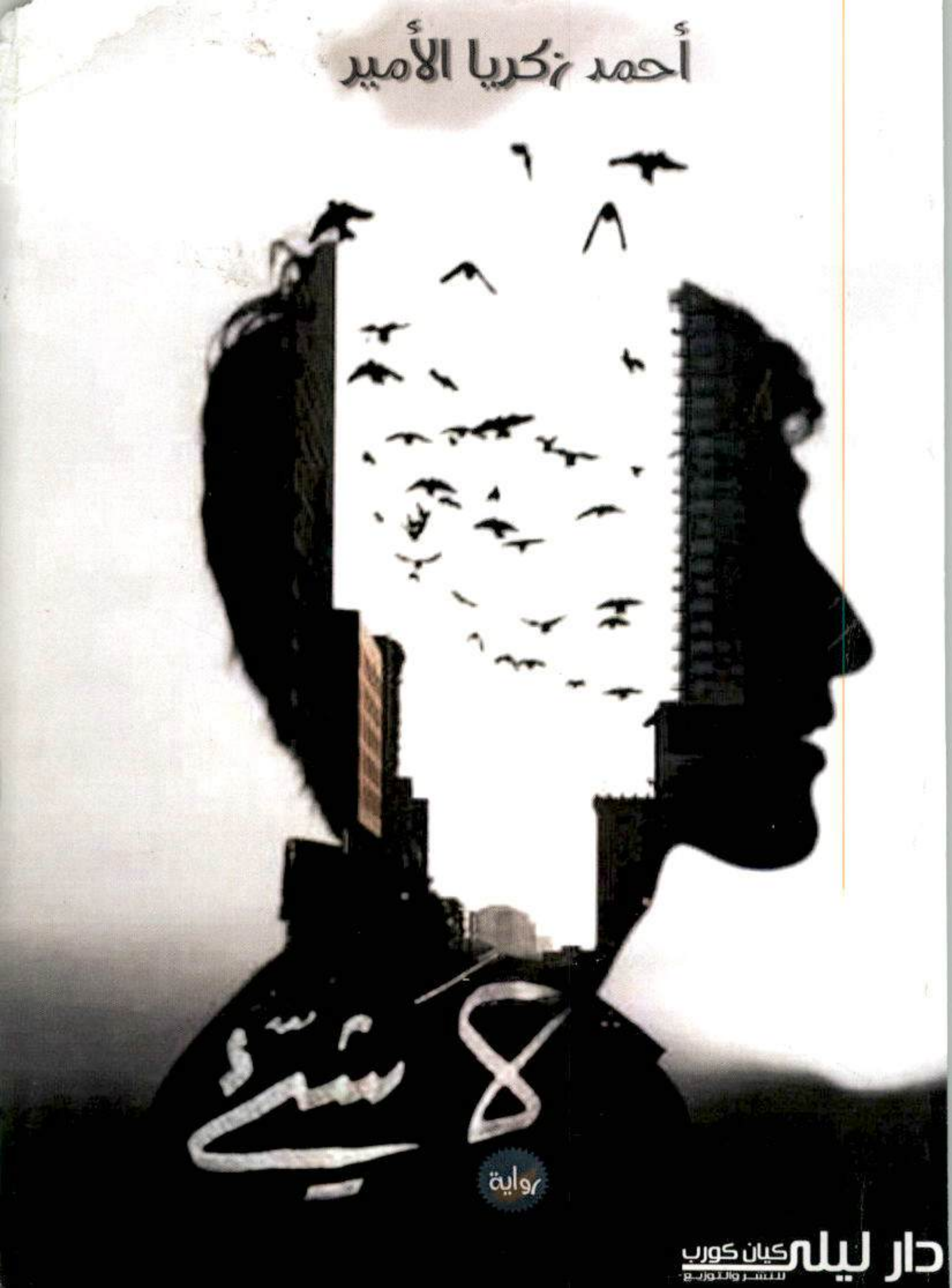

أحمد زكريا الأمير
لا شيء
رواية
دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

أحمد زكريا الأمير

لا شيء





لا شك

رواية خيالية عن الثورة المصرية

أحمد زكريا الأمير

كيان كورب للنشر والتوزيع
ذار ليلى

الكتاب:

لا تنسى

المؤلف:

أحمد زكريا الأمير

* * *

الغلاف:

محمد محمود

* * *

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين- 23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

إهـداء

إلى كل من دفع حياته ثمنًا من أجل عيشة كريمة.. أو كل من حاول دون أن يدركه الموت فعاش كالميت.. و صار فى موته حياة.. إلى كل من دفع ثمنًا باهظًا و كانت اللاشئ هى الجزاء الأوفى له..

إجابة لعدة تساؤلات.. ماذا قدمنا فى الحياة حتى نجزى عليه بالخير؟.. ماذا قدمنا لأنفسنا حتى يحترمنا العالم؟.. تساؤلات عدة و لكن الإجابة دومًا ما تكون واحدة... لاشئ، و من هنا الرواية تبدأ..

لكى أقيم دولة الإنسان

لا تسألينى من أنا؟

و ما الذى أفعله

كى أتحدى الموت و الزمان

أنا الذى أسقط ألف دولة و دولة

لكى أقيم دولة الإنسان...

نزار قبانى

تقديم

الحرية.. السم القتّال الذى يدب فـي الأوصـال.. تعـشق ريحـه و لونـه الشفاف و النجاة من عشقه محال.. أنشودة حياة نابضة.. إدمـان.. خروجـه من الجسد يعنى خروج الروح.. من ذاقه لا يستطيع أن يتوقف عن تعاطيه.. ترياقه أعظم منه فتكاً (الحب).. ذاك هو الموت النبيل

ديسمبر 2013

إلى القارئ

عند الصفحة القادمة بابًا تعيش فيه لبعض الوقت رواية قد تكون حقيقة أو خيالًا اتصل بالحقيقة فنسج لذا ضع جانبًا كل انتماء سياسى أو دينى فقط جرد نفسك لتكون إنسانًا خاليًا من كل هوى و اقرأ.. إن كنت مستعدًا فافتح الباب القادم

الفصل الأول

نظر أمامه بعين دهشة.. نظرة غريبة فيها تبدو الصدمة جلية.. ثم سمع دوى الرصاص و أحس به يخرق صدره و جسده.. خمس رصاصات متعاقبة.. ثم سقط أرضًا...

***

لن أستطيع أن أخرج فى تلك الحكاية عن الإطار المألوف و لكن سأترك الأحداث فيها كما وصلت إلىَّ أو كما وجدتها فى لفافة الورق التى وضعت أمام غرفتى فى الفندق الذى كنت أقيم فيه فى رحلتى إلى كاليفورنيا.. تنتهى القصة فى زمان ما بعد الثورة المصرية أو الأمواج الثورية المتعددة التى اجتاحت مصر منذ عام **2011** الى يومنا هذا.. كانت بداية حلم جديد لبلد جالد الزمان.. قهره كثيرًا و لم يسلم من قهره على رغم من ثبوته غير المنطقى.. علم الثورات علم زاخر بالأحداث و لكننى أؤمن أنه لا قاعدة للثورة و لم تتشابه النماذج يومًا فى الثورات.. منذ عهد الأنسان الأول بالثورة إلى يومنا الحاضر.. ربما تتشابه فى الإطار الشكلى و لكن لكل منها البصمة الخاصة بها.. الثابت فى كل الثورات أن هناك دومًا من يدفع الثمن..

لم يكن يومًا قائدًا للثورة أو المشعل لفتيلها و لكن دفعه جنون الحب

لدفع ثمن باهظٍ لكل شئ فى حياته التى قضاها بين غياهب السجون و بين حشود الناس يبصرهم بما يراه..

مغفل.. ربما يكون كذلك حقاً.. و ربما كان فى مقدوره أن يكون عظيمًا و لكن فى أمة أخرى غير التى مات من أجلها و كأن جيفارا يبعث من جديد.. و ربما يكون هذا قدره الذى كان لزامًا عليه أن يلاقيه.. منطق عجيب فى التسليم للقدر خاصة فى بلدنا مصر.. فالفقر قدر و الجهل قدر و الغناء الفاحش قدر.. و الزواج قدر.. و الابن العاق قدر.. هل إلى هذا الحد نؤمن بالقدر؟!!.. هل هذا هو الإيمان بالقدر حقاً أم أن عقلى يخادعنى كما يفعل دومًا فيقلل مما هو حقيقة.. و إن كان ما نحن فيه قدر.. هل نخرج عما هو مألوف إن اعترضنا على ما هو قدرى بمنطق العامة.. أعرف أنك الآن قد تسئ فهمى و لكن إن لم تصل إليك الفكرة فاعلم أن هذا قدرك ألا تصل..

تحدثنا عن الزمان البعد الرابع من حركة الحياة أما المكان ففى مستشفى بعيدة عن ضجة الزحام عن السياسة و الساسة ممن انكبوا على اعتلاء المناصب.. كل متاجر بشئ ما ظنًا منه أنه الرابح.. و تبقى الحقيقة واحدة أن الكل تاجر.. بل أسوأ تاجر على الأرض .. تاجروا بكل شئ بالوطن و صولاً للذين و مرورًا بالدم.. و لا أظن أن هذا قدرنا..

دعنا نتفق على شئ من البداية هل تعتقد أن الرزق مثلاً ينفصل عن القدر.. قد نتفق أو نختلف فى ذلك بشكل فلسفى و لكن فى نهاية الأمر

العملة واحدة فقط بثلاثة أوجه لا أكثر .. الرزق فى أى مكان فى العالم له منطق واحد.. هو شئ ثلاثى الأبعاد لا تنفصل تلك الأبعاد عن بعضها و ليس لك أن تتحكم فيها جميعًا بمعنى أنه لا بد من ثبوت أحدها و خروجها عن طور التحكم الإنسانى .. سأوضح لك الأمر.. لنأخذ مثال واضح.. إن كنت تبحث عن وظيفة مثلاً كما يفعل أى مصرى من مولده حتى مماته فالعناصر الثلاثة التى تبحث عنها فى تلك الوظيفة المرجوة هى الزمان و المكان و المجال.. بالطبع تلك الأبعاد هى ما تبحث عنها.. عدد ساعات العمل و مكان العمل و المجال الذى تتقنه و تستطيع أن تنتج فيه..

لم لا نحسب الأمر بالنسبة للعاطل الذى تعذر عليه أن يجد عملاً.. أو فتاة تعذر زواجها.. بالنسبة للعاطل فالزمان فى حالته لا يستطيع أن يغير فيه.. فهو يبحث عن العمل و تمر الأيام شاء أم أبى فالزمن يمر لا يستطيع أن يوقفه أو يؤخره.. فعندنا مثلًا يمكن للشاب أن يبحث عن عمل طيلة خمس سنوات دون فائدة.. للمكان عبقرية أخرى فإن لم تجد فى مكان ما تبحث عن آخر.. طبقًا لقانون أن الأرض واسعة و من حقك الشرعى أن تهاجر فيها.. و ماذا إن ضاقت عليك تلك الأرض.. فسافر تجد عوضًا عمن تفارقهم.. لذلك نجد أن هذا المنطق هو الغالب عندنا.. و إن لم تستطع فعليك أن تغير المجال و من هنا نجد سائق تاكسى حاصلاً على بكالوريوس زراعة.. أو عامل نظافة حاصل على بكاليريوس تجارة.. و مهندس ميكانيكا

يعمل بالمقاولات.. ربما يعتبر الأمر قدرًا.. ربما يستسلم لقدره أو لا يستسلم فالأمر سواء.. نحن نثبت بجدارة أن الإنسان مسير لا بقدره و لكن بحال بلاده.. ولا أظن الأمر يختلف كثيرًا بالنسبة للفتاة التي تعذر زواجها.. هي كذلك الأيام تمر عليها لتستسلم في نهاية الأمر إما لحالها و وحدتها أو تتنازل فتصبح سلعة رخيصة في أعين الناس و هذا هو الانتحار الذى تستسلم إليه حتى تهرب من لقب عانس و حتى إن كان ذلك الهروب إلى لقب أكثر قبحًا " مطلقة " ...

و لا تنسى ذلك الأخير (الموت) الذى لا ينتظر حتى أنه قد يباغتك و هذا هو القدر بعينه بكل أبعاده التي ليس بمقدورك التحكم بأى منها فقط يمكنك أن تموت على مبدأ أو كالبهائم.. و هذا قدرك الذى في وسعك اختياره...

* * *

- لا تحسن على الإطلاق!!.. أشاهده تائهًا في عالم آخر.. ثقيل اللسان إلى درجة العجز عن الكلام علاوة على عدم فهمه.. إلى متى هذا الأمر يا دكتور؟

- قلت لك يا سيدة بهية من قبل.. لا فائدة.. عجزنا أن نفعل معه أكثر من ذلك.. و كأن الأمر متعلق به.. هو رافض أن يعود للحياة بشكل غريب..

- و ماذا أفعل؟.. اتركه يقضي بقية حياته مشلولاً علـى كرسـي.. لا يتكلم.. لا يتحرك.. ليته مات..

- ليته.. (قالها الطبيب في سره)

- ماذا؟

- لا تغضبي.. قلت الحقيقة.. هو الآن ميت..

على كرسيه المتحرك يجلس مائل الـرأس ناحيـة كتفـه الأيـسر عينـاه شاردتان في عالم آخر غير الذى يراه يجلس كل يوم أمام شجرة في حديقـة المشفى يحملق فيها و يتمتم بكلام غير مفهوم حتى يغلبـه النـوم فينـام.. أو ربما يسبح في عالمه ذلك بعيدًا.. الشحوب قد طغى على معالم وجهه الوسيم و احتال تحت عينيه للسواد و بعض مـن لـون الكـروم الأصـفر و بعـض مـن زرقة الكدمات القديمة لاتزال تاركة بعض الأثـر علـى وجهـه.. و جـسده المشوق تحول للنحول بشكل غريب.. دومًا ما يهزهز رأسه بشكل دائم في غمرة سكراته البعيدة تلك.. العجيب أنه يبتسم أحيانًا بالرغم من كل ما هـو فيه من عذاب و ألم.. في حقيقة الأمر أتساءل كثيرًا لم يـضحك.. و مـن أيـن جاء بتلك الضحكات؟؟.. بالرغم من أن عينه لا تكاد تجف من الدموع..

أى مسلك للفرحة قد جال بخاطره.. ربما ذكريات الطفولة.. لا لا أظـن هي.. لا أظن أن الطفل الذى تربى يتيمًا بعيدًا عمـن يحتـضنه أو يـسكن مـن روعة يومًا يملك من الذكريات ما يضحكه.. بين كفتي الرحى عاش الـصغير

متألمًا من وحدته.. معينًا نفسه على تحمل كدرات الحياة.. الوحدة دأبه.. في الحقيقة كان لتلك الوحدة أيضًا فضلًا عليه كبير و نقمة عليه أودت به إلى ما هو فيه الآن.. القراءة.. منذ أن كان طفلًا دأب عليها فكانت ملاذه و مهربه من وحشته و وحدته.. لم يشغل موت أبيه يومًا باله في صغره.. هو لم يره و لم يعرف يومًا معنى أن يكون لك أبا.. كبقية الأطفال تمنى أن يعرف عن هذا الأمر.. أما هو لم يأبه يومًا للأمر فكان في حياته من عوضه عن كل ما يفقده من حنان...

* * *

تسير السيارة بشكل متسارع من الأسكندرية متوجهة للقاهرة.. تقل ذلك الشاب الوسيم أحمد طلعت الطالب بكلية اقتصاد و علوم سياسية جامعة القاهرة تساور ذهنه أحداث حياته بشكل متسارع.. بالأمس القريب واجه أكبر صدمات حياته.. فقد أغلى إنسانة عليه .. على يدها صار رجلًا و بها وصل إلى ما تمنى في حياته.. هي ليست أمه و ليست أخته ولم يفكر يومًا ما الرابط بينهم.. أو يودعه الاعتبار.. هي ابنة خالته تكبره بعشرة أعوام.. مات أبوها و هي في العاشرة من عمرها.. لذا تذكره جيدًا.. تعرفه.. فهمت على العكس منه معنى أن تجد حنان الأب.. بعد ما مات أبوها بشكل فجائي تزوجت أمها أكثر من مرة.. كانت تقول خمس مرات متشككة في العدد.. ربما يكثر عن ذلك.. في سن الخامسة عشر نشب في بيتهم الخشبي في بورسعيد حريق أودى بحياة أمها و زوج أمها الأخير.. بشكل غامض و

مفاجئ و غير مسبب.. كان البيت خشبي عتيق من تلك البيوت التي بنيت أثناء حفر القناة لتكون استراحات للأجانب ممن يعملون فيها..

شابة جميلة.. لم يتوقف عندها حد الجمال بمفهوم المادة.. و لكن تعدى كل ذلك إلى جمال حقيقي كإنسانة و كامرأة.. خلابة العينين خنساء الأنف.. عندما تضحك يظهر على وجنتيها علامات الحسن.. تحرص دومًا أن تكون جميلة برغم كل شئ.. لم تتلقى قدرًا من العلم يجعل منها المرأة المثقفة بمفهوم الكتب.. لكن ما لاقته في الحياة جعل منها امرأة مدركة لحقائق الأمور عالمة بخفايا النفس.. لا تخطئ قراءة النظرات خاصة نظرات الرجال.. تعرف الرجل و خبايا نفسه و حقيقتها من نظرة واحدة فقط.. ربما كانت تلك ميزة كبيرة خاصة ليتيمة مثلها استطاعت أن تتغلب على كل ما لاقته في حياتها من معاناة.. ممشوقة القوام امرأة فاتنه بمفهوم المادة.. قوية اليد كالرجل.. لصفعتها قوة شديدة تسقط من يتلقاها من فوره على الأرض.. و إن كان رجلًا.. حرصت دومًا على أن تكون قوية.. طيلة حياتها القصيرة كانت قوية حتى في أحلك اللحظات.. بالرغم من رقتها التي كانت تحاول دومًا أن تخفيها عن كل من حولها حتى تحافظ على نظرتهم إياها بعين القوة.. ربما كانت تصرخ بشكل جدى في وجه أحد السفهاء فتغلبها بعض الدمعات فتجلس على الكرسي تدارى دمعاتها بيدها ثم لا تلبث إلا قليلًا لتقوم أقوى مما كانت عليه فتكمل شجارها حتى تنتصر

كلبؤة تظفر بصيدها في النهاية .. كثيرًا ما كانت تمل من فطنتها التي تتمتع بها.. كانت تقول أن فهم ما حولك أكثر مما يجب يشعرك بالملل.. كم كنت أتوق لأن أكون أغبى من ذلك بقليل.. كانت تقول ذلك و تضحك ساخرة من كل شئ حولها.. تضحك بصوت عال و لكن بشكل جدى أيضًا.. لا تصدر ضحكات رقيعة كالتى نعرفها عن النساء.. ربما تضحك فارغة فمها و لكن كضحكات الرجال لا أعنى من كلمة الرجال الذكورة و لكن لطالما وجدت نساءً بألف رجل و لا أقصد العدد..

بالرغم من ما تتمتع به كامرأة من الحسن و الجمال إلا أنها لم تتزوج .. لطالما كانت حياتها صندوق أسود لا يعرف عنها أحد.. بالطبع لم تسلم من سلاطة ألسنة من حولها من دهماء الناس.. بالطبع فى مجتمعنا الشرقى الذى أضحى أكثر المجتمعات فى العالم مشاهدة للأفلام الإباحية لا تسلم شابة جميلة مثلها من السمعة السيئة.. و كأن النساء لم تخلق لشئ غير الجنس.. لم تكن تأبه كثيرًا بما يقولون عنها.. فهم لا يعرفون.. لا يعرفون أنها تكره الرجال تكره نظرات الرجال للنساء.. ربما لهذا الأمر أصل و لكن لا يعرفه أحد حتى أقرب الناس إليها.. أحيانًا لا تكون نظراتها تنم عن كره حقيقى بل خوف..

من صور ما يعرف عنها من كراهة الرجال أنها كانت دومًا ما تحب أن تراهم يعذبون.. تستمتع بجرح أى رجل بشكل عجيب.. تفرح عندما تراه

ذليلًا منكسرًا أمامها.. تضحك وقتها بسعادة غامرة و ربما بكت من الضحك حينها جاعلة منه لاشئ.. و من كرامته هباءً منثورًا.. و كأنها تؤمن بأن الرجال وحوش عليها أن تروضهم و تعنفهم حتى تستطيع أن تعاملهم بشكل آمن.. لا أريدك أن تسئ فهمها كما فعل الكثير لا تظلمها كما فعلوا كانت امرأة كاملة.. ربما إلى درجة لم يتفهمها هؤلاء الأوباش..

* * *

في مثل ذلك اليوم منذ ثلاثة أعوام قبض على أحمد فى محطة مصر.. كان متبوعًا من قبلها بأيام فعلاقته بأمن الدولة لم تكن علاقة ودية بأى حال من الأحوال.. كفى أنهم عجزوا على تصنيفه.. لم يكن يومًا تابعًا لتيار سياسى بعينه.. بل كان مقبولًا بين الجميع.. أو ربما كان هذا هو الحال.. لكل تيار حاجته من التيار الآخر.. مجرد مصلحة خالصة لوجه الكرسى.. هذا ما تبينه اليوم.. عندما وجد أصحابه و كل منهم منتمى إلى تيار ما.. البعض من أصحاب اللحى و الآخر من أصحاب الكوفية.. لا يهم الآن التصنيف فبالرغم من خلافهم القائم إلى يوم القيامة إلا أنهم يتفقوا فى شئ واحد الكل ساع وراء السلطة.. كانت تلك هى صدمته الكبرى.. أحس بكذبهم .. حتى أنه أحس بمرارته فى فمه.. مرًا إلى درجة لم يتحملها فحملته للقئ.. معدته فارغة من الطعام و بالرغم من ذلك تقيأ كثيرًا ربما خبثا و ليس خبزا .. أو ربما كان ذلك القئ بعضًا من السموم التى أدركها

تسير في شريان بلاده...

سنوات من عمره قضاها بين الهروب و بين السجن دون جدوى من أجل أن يتقاتل من حوله على كرسي زائل.. ربما كانت صدمته أكبر عندما وجد أصحاب الألسن المبدعة و المبادئ العظيمة أول من يدهسها في طريقه فقط للوصول لشهوة السلطان..

الفصل الثانى

فى غرفة مظلمة ضيقة لا منفذ فيها للهواء.. يجلس أحمد على قطعة من الصوف الخشن.. قد لايتحمله كائن فضلًا عن كونه إنسانًا.. اعتاد تلك الظلمات منذ المرة الأولى التى اعتقل فيها.. لك أن تطلق لخيالك العنان متخيلًا أى شئ قد يحويه صدرك من كره عندما ترى شابًا فى الثانوية العامة مقبوضًا عليه قبل امتحانه بثلاثة أيام فقط.. لا تسأل حينها عن تهمة.. أى جريمة يمكن أن يرتكبها من فى مثل سنه.. فقط كانت إجراءات تأمينية و تحقيقات لم يكن هو المقصود منها و لكن شاب آخر يكبره بأربع سنوات صديقه الجامعى خيرى صادق الذى اعتقل بعدها بيومين فقط.. و لم يعد له أثر بعدها فى تلك الحياة.. ربما انتهى به الأمر صريعًا.. أو لعله فقد عقله.. أو ادعى عليه بذلك.. شاب يسارى يؤمن بأفكار.. قد تكون صحيحة أو خاطئة و لكنه على كل حال يرمى من ذلك حياة طيبة للعامة من الناس ممن صعبت عليهم الحياة كما صعب عليهم الموت و بعد.. صارت حياتهم كالموت و صار موتهم حياة.. و كان هذا هو الحال فى الحارة التى تربى فيها ذلك الشاب خيرى.. فى مثل هذا السن تلوح أمام الشباب بعض الأفكار و الطموح سرعان ما تتقلص ثم تختفى.. كثير من يستسلم للأمر و كثير

يتظاهر أنـه قـد استـسلم.. و لكـن القليـل فقـط لا يـستطيع أن يستـسلم.. فاستسلامه يعنىَ الموت.. أو ربما يعنى حياة قاسية كل ما يطمح فيهـا فقـط رغيف خبز أو بعض كسرات الخبز التى يتقوت بهـا فتحـول بينـه و بـين الموت.. ربما لا يستسلم للموت خوفًا.. ربما طمعًا فى الجنـة.. و ربمـا لأنـه جبن أن يموت.. و هنا تظهر المعضلة الكبرى.. عندما يتساوى لديك الموت و الحياة.. فأنت على حافة الجنون...

فى تلك الأيام الثلاثة الأولى على غير العادة من أجهزة الأمن الـسرية.. أو كما يطلق عليها دومًا الأجهزة الحساسة.. اكتفى السجان يومها بإسماعـه آلام من حوله ليردعه عـن أن يطالـب بحيـاة كريمـة.. مـن خـلال نـشاطات سياسية.. فى الحقيقة أدى ذلك الغرض.. بعد ثلاثة أيام خرج مـن محبـسه ليحاول أن يلحق بامتحان الثانوية.. لطالما طمح لكليـة مرموقـة يجـد فيهـا نفسه أو شئ ليعوضه ما لاقاه فى حياته من عنت.. خاصة أنـه تربـى يتيمًـا ماتت أمه و هو فى السابعة من عمره.. لم يجد من يرعـاه سـوى تلـك الفتـاة التـى قـدمت مـن بورسـعيد لتعـيش مـع خالتهـا بعـد مـا ماتـت أمهـا فـى الحريق...

* * *

تحت تلك الشجرة الكبيرة فى حديقة المشفى و من على كرسيه المتحرك تدور من حوله أحداث حياته التى كانت.. لا يعلـم أحـد بهـا.. بـل لا شئ

يعلم عنها غير تلك الشجرة.. كما أن لا شئ يتحرك في جسده غير عينيه تمطر بالدموع.. ربما فرحًا أو حزنًا و لكن لا شئ يملكه يعبّر به عن نفسه غير دموعه.. كالطفل الوليد.. لا أحد غير عمته التي رجعت بعد غياب طويل في الخارج.. لم يرها منذ صغره.. و لم تعلم عنه شيئًا طيلة سنوات غيابها.. حتى أنها لم تكن تعرف أن أمه قد ماتت و هو في السابعة من عمره.. تضع بعض الطعام في فمه.. فتذكره بأمه.. سرعان ما استحضر يوم موتها.. بل مشهد موتها.. حيث كان يرقد إلى جوارها يغط في النوم.. كان يعرف أنها مريضة.. و لكنه لم يكن يعرف أنها ذاهبة لا محالة.. فقط ابنة خالته سهام كانت تعرف.. استيقظ يومها على بكاء سهام.. و صوت بعض الجارات من حولها استغاثت بهن و لكن كان الأمر منهيًا منذ ساعات.. و شاء القدر لفتاة في السابعة عشرة من عمرها أن تكون مسؤلة عن طفل في السابعة..

* * *

- هذه المرة التهمة واضحة.. و ثابتة

قال ذلك الضابط المكلف بالتحقيق معه و هو في عامه الثاني من الجامعة كطالب في كلية الاقتصاد و العلوم السياسية.. من حقه أن يمارس ما يشاء من السياسة.. خاصة أنه مقدر له أن يدخل هذا الحقل الشائك في يوم ما.. هذا ما يحدث في بلاد أخرى تعرف معنى تلك الكلمات و تؤمن

بها.. أجلسه الضابط على كرسي معصوب العينين.. في الحقيقة كان رجلًا خلوقًا.. لم يعرف اسمه أو يره.. و لكن كان يبدو من صوته أنه شاب في مقتبل حياته.. لم يعرف بعد أساليب الضغط و العنف.. أو ربما تلك هي السياسة الجديدة المتبعة في تلك القضايا..

- اسمك.. سنك.. عنوانك

- بالرغم من أني لا أريد أن أجيب علاوة على أنك لا تحتاج الإجابة.. و لكن كما تشاء.. اسمي أحمد طلعت.. واحد و عشرون عامًا.. عنواني مثبت في المحضر كما في البطاقة في الإسكندرية بالرغم من أني أقيم في المدينة الجامعية الآن..

- ما الأمر إذا يا أبو حميد؟.. ماذا تريد؟

- لا شئ..

- حقًا لا شئ..

- أقسم أني لا أريد شيئًا..

- و لم إذًا تلك القلاقل التي تثيرها كل يوم في الجامعة؟

- آه.. تقصد حديثي في السياسة.. تعرف أني طالب بكلية سياسة.. و الأمر طبيعي أن نطبق بعض ما ندرسه في واقع حياتنا

- ها.. فنصنع المظاهرات.. و ننضم لجماعات سياسية غير قانونية..

- لا.. دون قطع حديثك.. فقط كنت أريد أن أسأل.. من جعل تلك الجماعات التى تقول عنها غير قانونية.. أليست الدولة من تصنع القانون

- أنا هنا من أسأل.. لم انضممت لظاهرات كفاية؟

- و لم لا.. أليس من حق كل مواطن التعبير عن رأيه!

- عندك حق.. سنرى فيما بعد.. و لكن هل أنت منضم لهذا التنظيم؟

- لا..

- و لا الإخوان..؟؟

- لا.. و لا غيرهم و لا لأى تنظيم..

- و لحساب من تعمل إذًا.. عميل خارجى مثلًا

- هه.. عميل خارجى لا يملك غير معاش أبيه.. لم تحاول تصنيفى.. عليك أن تصدق ما أقوله و حسب.. لست تابعًا لأى تيار.. حقًا.. أنا مسلم و أصلى ولا أنتمى لتيار دينى و أحب بعض الفكر الاشتراكى .. أو اليسارى إن كنت تحب أن تسميه كذلك و لا أنتمى له .. و لا أريد شيئًا غير الحياة الطيبة.. لا أطالب بالكثير فقط أقل الحقوق

تعرف نحن شعبًا اعتاد أن يعيش بالقليل.. القليل فقط. لا نحتاج أكثر من ذلك.. نحن أول من ابتدعنا " البركة فى القليل ".. و لا أعرف أصلًا لتلك

الكلمات.. لم لا يكون " كثيرًا و فيه البركة أيضًا ".. و ماذا تعنى كلمة البركة بالنسبة لنا أصلًا.. تعرف ماذا تعني.. تعنى ألا ينتهى المرتب أو المعاش يوم عشرة.. يعنى ألا تمرض فتحتاج لعلاج لا تملك أن تشتريه.. أو يمكن أن تفضل الطعام على الدواء.. بدعوى " أن الشفاء من عند الله ".. تلك هى البركة بالنسبة لنا...

- كلام جميل و لكنه لا يرقى لأن يكون غير فلسفة فارغة..

- هو كذلك.. فلسفة فارغة.. و لكنك تؤمن بها..

- ربما تكون محقًا بعض الشئ.. و لكن عليك أن تعرف أن بلادنا مستهدفة.. كثير من يتربص بها الدوائر من حولنا..

- هذا صحيح.. و لكن هل هذا ما يمنع أن نكون بلدًا حرًا.. يمنع أن يحيا الناس حياة كريمة.. كل البلدان مستهدفة.. هذا العالم يحيا على قانون الغابة.. ليس للضعيف مكان فيه.. أين الصناعة التى كانت.. أين الزراعة و أين التعليم.. هل حماية البلد فى أن يظل أهلها جوعى جهال..

- كف عن جدلك هذا و لا تختبر صبرى أكثر من ذلك..

- أنت محق.. تستطيع أن تضربنى كما تشاء و تسبنى كما تشاء.. و لكن اعرف إن كنت تخشى على البلد من شاب ضعيف مثلى.. فاعرف أنك تحمي شيئًا واهيًا لا يستحق الحماية أصلًا.. و بلدنا أكبر من ذلك..

- **لا تقل كلامًا أكبر منك.. لا تجعل من حب البلد حكرًا عليك و على أمثالك.. إن كنت تحبها حقًا.. فأنا أعشق ترابها**

- **و أنا أسف ترابها.. فأينا أكثر حبًا إذًا؟!.. إن كنت تعشق ترابها حقًا فلم كل هذا التعذيب الذى أسمعه كل يوم طوال الليل.. أنت من تجعل هذا الوطن حكرًا لك.. تتحدث عن ترابها و أنت تمشى فوقه لا تعرفه كما أعرفه.. أنا تذوقت طعمه و شممته مرارًا.. فمثلي لا يخطو فوق ترابها بل إما أن يسفه و إما أن يكون تحته..**

- **لا فائدة من الحديث معك.. خذوه إلى محبسه و امنعوا عنه الطعام و الماء**

* * *

- إلى متى سترفضين الزواج يا سهام؟

- إلى أن أموت يا خالة.. إلى آخر عمرى

- أنت جميلة وموظفه بالحكومة.. لا ينقصك شيئٌ.. و العريس الذى جئت به إليك.. لا ينقصه شئ.. و أخلاقه يتحاكى الناس عنها

- اسمعى يا أم إبراهيم.. إنت جارتنا منذ زمن.. و أنا أحبك.. لكن لا تحدثينى فى أمر الزواج بعد اليوم أبدًا.. فهمت أبدًا..

- يا بنيتى أحمد كبر و صار رجلًا.. و لا ريب سيتزوج يومًا.. سيفرغ عليك البيت إذا.. و اسمحى لى أحمد ليس أخاك و لا يصح أبدًا أن

تقيمى معه بعد ذلك.. هو فى الجامعة و لكنه سيعود..

- اسكتى إياك و أن تتحدثى بذلك أبدًا.. أحمد هذا ابنى.. ربيته منذ صغره.. إن كنت سمحت لرجل أن يكون فى حياتى لن يكون غير ابنى أحمد.. شرفت يا أم ابراهيم..

خرجت المرأة من الباب محرجة.. بالطبع كان كلامها جارحًا لسهام بشكل كبير.. لا تتفهم الناس كثيرًا مثل تلك الحالات.. الأمر غريب هى بالفعل ابنة خالته و هى من ربته.. سهام عنده هى كل شئ فى حياته لم يعرف غيرها.. هى أمه و أخته و صديقته التى يحكى لها سره.. تخدمه بكل حب.. معه فى سرائه و ضرائه.. صمدت معه و إلى جانبه إلى أن دخل الجامعة.. منذ أن ماتت أمه و هى فى السابعة عشر من عمرها و كان هو فى السابعة.. طفلاً لازال لا يدرك من الأمور الكثير.. كانت طالبة فى مدرسة فنية بسيطة.. تخرجت فى العام الذى تلى وفاة خالتها و عملت موظفة فى البريد.. لم يكن معاش أبيه بالذى يسمح له أن يخوض فى التعليم للجامعة .. فكانت إلى جواره حتى أتم ما يشاء من تعليمه.. لطالما طمحت أن يكون طبيبًا و لكن لم يكن أحمد مهتم بأمر الطب كثيرًا.. و على غير العادة فى بلادنا دخل كلية أحبها و تمنى أن يكون فيها يومًا...

الفصل الثالث

جلس على الأريكة التى وضعت فى المقابل من باب الشقة.. منهكًا تمامًا.. لا من السفر أو لمرض ألم به.. بل ما ألم به أكبر من ذلك.. خيبة الأمل.. أن كنت مصريًا فلن تحتاج لتفسير معناها.. و إن لم تكن.. فلها طعم فى حلقك مرٌ أشبه بما يشعر به الصائم الذى طال صيامه و كل منه حتى غلبه النوم.. يعقبها بعض الإحباط الذى لا بد منه.. خمول يدب فى جسدك و عقلك.. أما ألمها فكأن ألف خنجر قد دب فى صدرك بقوة ألف رجل.. تلك مرحلة عليك أن تمر بها يومًا ما.. اليوم هى ذروتها عنده.. أدرك أنه لن ينال مراده فى أن يكون معيدًا يومًا.. حقًا هو أول الدفعة.. و لكن من يكون هذا اليتيم المسكين الذى قدم من حى بسيط فى الإسكندرية.. فى الحقيقة كان يعرف أن هذا ما سيلاقيه.. شئ ما نابع منه يهتف بذلك و لكنه كان يكذبه.. أو ربما لم يرد أن يقتل الأمل فى صدره.. بالطبع كيف يقبل و هو رجل من المغضوب عليهم.. كثيرًا ما كان ضيفًا فى غياهب أمن الدولة.. و كثيرًا ما كان مشاكسًا.. و لم يكن أبوه يومًا أستاذًا فى الجامعة.. تذكر ذلك الخاطر فى صمت عينيه السرحة على باب الشقة فقد تركه مفتوحًا و لم يغلقه حتى.. إلى جواره منضدة مستديرة قديمة موضوع عليها زهرية فيها

بعض الورد البلاستيكى.. أخذها و نظر إليها طويلاً.. ثم أخذ يضحك بـشكل هستيرى.. حتـى سمعـت سـهام صـوته لم تكـن قـد لاحظـت أنـه رجـع إلى البيت.. بخطوات متباطئة مشيت نحوه تنظر إليـه.. فهمـت مـا آلـت إليـه الأمـور.. كانـت تعـرف إلى أيـن هـو ذاهـب.. لم تعلـق كـثيرًا.. و لم تطـل ضـحكاته كـثيرًا.. لكنهـا كانـت حتـى الـدموع.. أغلقـت بـاب الـشقة.. ثـم انسحبت للمطبخ تحضر له بعض الطعام و كوبًا من الشاى المغلى كما يحبه..

فى مطبخها كان الماء يغلى كما كان صدرها يغلى.. لم تستطع أن تمـسك دمعها بالرغم من أنها حاولت أن تكون قوية كما كانت دومًا.. سكبت الشاى و بعض الدمعات.. و وضعت فى صينية بسيطة بعض الطعام.. حملتـه علـى مهل حتى وصلت إلى حيث يجلس و وضعت الطعام إلى جواره علـى المنـضدة المستديرة.. قال لها بصوت محشرج

- لا أريد أن آكل..

بنفس الهدوء حملت الصينية عائدة بها إلى المطبخ و لكنهـا لم تـستطع فجلست إلى جواره.. ثم انهمرت منها الدموع.. أما هو فأمسك بيدها و قبلها بلطف و نظر إليها محاولاً الابتسام.. فكانت ابتسامته مؤلمة.. قامـت لتغلـق على نفسها غرفتها فتطلق عنان بكائها كمـا شـاءت.. لم تكـن خيبـة الأمـل بعيدة عنها بالطبع هى من كانت إلى جواره طيلة مشواره.. من حقها الآن أن تحصد و لو بعض ما زرعت.. هذا ما تشعر به أى امرأة أرادت يومًا لابنهـا

أن يكون رجلًا ذا شأن.. ربما ما يطمئنني بعض الشئ أن الناس لازالت تحلم بالرغم من كل شئ...

* * *

هل عرفت يومًا كيف تكون مضطرًا للحياة.. فقط أيام تقضيها تضيعها و تحاول أن تلقى بنفسك في دروبها غير عابئ بشئ.. لطالما تمنت سهام الموت.. بل أقدمت عليه يوم احترق بيت أمها فألقت بنفسها من الشرفة.. قد تكون تلك هي ردة فعل هستيرى كي تهرب من الحريق.. لا لم يكن هذا ما تريده يومها.. كانت مقدمة على انتحار حقيقي.. يومها أصيبت في رأسها بشدة.. و انكسر ذراعها الأيمن.. عندما أفاقت يومها وجدت نفسها ملقاة على سرير المستشفى و إلى جوارها خالتها.. في غرفة كبيرة تراص فيها المرضى كل في ركن ما.. ربما لا يجد المريض سريرًا فيتخذ من ملائة بالية سريرًا يفترشه على الأرض.. لا يخفى هذا الحال على أحد غير المسؤلين.. فدومًا في زياراتهم المفاجئة التي يخبر بها قبلها بأيام فالأمر مستتب و كل شئ على ما يرام..

استفاقت يومها ناسية كل شئ.. قالوا إن ذلك من أثر الصدمة التي رأتها.. و لكنها سرعان ما استفاقت لتظل تحفظ تلك الذكرى في عقلها.. تداهمها بشكل غريب.. ربما تكون نائمة فتصرخ بصوت مخنوق متحشرج و تظل على هذا الحال ثم تغط في النوم ثانية.. في الصباح لا تتذكر شيئًا من

ذلك.. و كأن شيئًا لم يكن.. تكرر الأمر في صغرها كثيرًا.. و عرضتها خالتها على أكثر من طبيب.. لا فائدة من الأمر.. و كما ترسخ الوهم في ثقافة أهل المحروسة فتلك الأمور لا تفسر إلا بشئ واحد..

- الحاجة مشمشة..

- مشمشة..

- اسمها الحاجة مشمشة.. ربنا يجعل كلامنا خفيف عليها.. هي من ستساعدك في علاج تلك المسكينة.. أعرف تلك الحالة كانت عند كمال ابني في صغره و لم تشفيه إلا الحاجة.. كان عليه اللهم احفظنا..

- معقولة..

- نعم لا تتأخري في الأمر..

في سن السادسة عشرة بدأ الصرع يداهم سهام بأعراضه كاملة.. نوباته المتكررة كانت تداهمها في أي وقت و في أي مكان.. الصرع مرض قديم جدًا حتى أن بعض البرديات احتوت عليه و تحدثت عن أعراضه و بالرغم من أن هذا المرض لم يفسر لدى القدماء على أنه من مس الشيطان كما يفسر الآن في حضارتنا التي أضحكت العالم حتى كاد يسقط أرضًا.. إلا أننا نفسر الأمر على نحو ما ترسخ في العقول من الجهل.. كانت تعتبر سهام هذا هو سرها الأعظم.. كانت تبرع في التعامل مع من حولها بشكل طبيعي حتى تتمكن

من أن تخفى مرضها.. لم يكن المرض مؤلمًا بالقدر الذى تشعره من نظرة من حولها.. البعض يتهمها بالجنون و البعض يراها شيطانة.. و البعض يجعل منها بغيًا أو شاذة.. كل ما أرادته أن تخفى سرها عن الناس قليلًا فينسون ما تعانيه من المرض.. بالرغم من قدر علمها الضئيل إلا أنها توصلت إلى ما تحاول أحدث العلوم الطبية أن تصنعه.. التحكم فى ذلك المرض و نوباته..

مريض الصرع أحيانًا لا تباغته النوبة.. ربما يسبق الأمر بعض العلامات قد يشتم رائحة ما أو يرى صورة ما أو يتذكر شيئًا ما ثم تتبعه النوبة.. و كذلك كانت سهام تشعر بالنوبة قبل أن تفقد وعيها.. كانت تجرى إلى غرفتها واضعة نفسها على الأرض و تنام على الجانب الأيمن كما نصحها الطبيب و فسرته هى بعقلها بأنها تواجه الموت فى تلك الحالة فإذا ماتت تكون على جانبها الأيمن فيكون ذلك من حسن الخاتمة هكذا كانت تعتقد...

يعرف أحمد ذلك و كثيرًا ما كان معها فى تلك النوبات.. فقط يقف إلى جانب من الغرفة و تسيل دموعه حتى تنتهى النوبة..

مرت السنوات و نسى أهل المنطقة تلك الحالات التى كانت تنتابها فى صغرها ظنًا منهم أنها تعافت على يد الحاجة مشمشة المبروكة.. و لكن عاود الأمر من جديد.. فلا يوجد تفسير آخر.. لم ترفض الزواج على الرغم من أنها امرأة كاملة فكان التفسير أنها معقودة من العفاريت التى كانت عليها

أو ربما كان هذا شبح أمها التى ماتت محروقة .. فانتازيا التفسيرات الغريبة لا شئ يبرع فيه الناس أكثر منه.. يتذكر الشارع كله الذى تسكنه يوم داهمتها النوبة حينما كانت تشترى بعض الحلوى من البقال.. منذ ذلك اليوم ينظروا إليها نظرة الارتياب.. لا تزال تذكر ما فعله الشيخ عبد الباقى ظل يقرأ القرآن إلى جوارها و هى مستلقية على الأرض فى الشارع و ما أن انقضت النوبة ظن أن الجن الذى يؤذيها قد انصرف عنها بفضل ترتيله.. و لكن سرعان ما مضت أيام قليلة لتداهمها النوبة من جديد.. فتنادى أم إبراهيم الشيخ مرة أخرى ليصرف ذلك العفريت الخبيث عن تلك المسكينة.. فى تلك المرة كان تصرفه غريبًا أحضر معه خرطومًا ليضربها به و هو يقرأ.. هكذا اعتقد أنه يعذب ذلك الشيطان فيصرفه عنها.. ظلت علامات الضرب التى تلقتها من الشيخ ظاهرة بعدها بسنوات و الغريب لم ينصرف بعد.. و لم ينصرف حتى ماتت...

لم يسمع أحد يومها لتوسلاتها لوقف هذا التعدى المؤلم عليها دون جدوى.. ربما استسلمت لقدرها و اقتنعت بعض الوقت لفكرة أن تلك الحالة نتاج لمس الشيطان الذى جعل من حياتها جحيمًا.. التفت الجارات من حولها و الشيخ جالس إلى جوارها على الأرض يقرأ بعض آيات القرآن و فى يده ذلك الخرطوم الأسود الذى يجلدها به.. تصرخ فيظن من حولها أن هذا صراخ الجنى اللعين.. تتوسل و تسيل دموعها من الألم و لكن لا فائدة من

ذلك.. حتى داهمتها النوبة و هى في تلك الدائرة فظنوا أنه يخرج.. ظل الشيخ يقول

- اخرج من فمها.. و لا تخرج من عينها

كانت تضحك كلما تذكر ذلك الأمر عندما أدركت بما عندها من المرض.. نتيجة لإصابة رأسها قديمًا فى حادث الحريق.. و لكن قليلًا من يدرك ذلك من الناس و كثير من يعذبون بدعوى الخرافة...

* * *

- الشيخ حسين يريدك يا أخ أحمد

- اللهم اجعله خير.. أما ينسانى هذا الوغد.. حاضر سألحق بك

الشيخ حسين زميل لأحمد فى جامعة القاهرة.. كان صديقًا له فيما سبق قبل أن يتحول فيصبح الشيخ حسين.. هو طالب فى كليه آداب قسم فرنسى.. يرسب منذ أعوام و لا يهتم بأن يتخرج يومًا.. بل ربما كونه طالبًا يعود عليه بالنفع أكثر من أن يكون خريجًا.. الشيخ حسين بالنسبة لأحمد كتاب مفتوح يعرف عنه ما لا يعرفه أحد فى الجامعة كلها.. فقط منذ عام واحد كان الشيخ حسين ملقب بحسين سوسته كان المُورِّد الأكبر للأفلام الإباحية فى المنطقة.. يلجأ إليه القاصى و الدانى فى ذلك الأمر.. و أحيانًا يُورِّد بعض الحشيش و البانجو فقط لتحسين الدخل.. هو كذلك تلك حقيقة لا ينكرها هو نفسه و لكن تحوّل الأمر بين عشية و ضحاها فصار الشيخ

حسين.. خطيبًا يوم الجمعة لا عن تكلفة أو إشراف من الأزهر الشريف.. و لكن هكذا تسير الأمور فى المساجد الصغيرة..

- أهلًا مولانا الشيخ سوسته..Bon jour كيف حالك يا رجل؟

- اخفض صوتك.. يسمعك أحد.. فتضيع هيبتى..

- هل أتحدث الفرنسية بشكل خاطئ؟

- إما أن تكف عن هذا و إلا فسأذهب عنك

- ليتك تذهب.. ما علينا.. ماذا تريد؟.. ما الذى فكرك بى؟

- و هل من العجيب أن أسأل عن أخى و صاحبى القديم؟

- آه من العجيب.. ما الأمر؟

- اسمع فى الأمر مصلحة لنا جميعًا.. لقد راجعنا أنفسنا.. و قررنا أن نتعاون مع بعض أهل السياسة و إن كانوا كفارًا

انتاب أحمد الضحك حتى كاد يسقط أرضًا.. فكلمة كفار تلك غريبة جدًا أن تخرج من حسين سوسته..

- كفار.. و ماذا تريد منهم؟.. يا شيخ حسين يا سوسته

- أبدًا الأخوة يريدون التواصل معهم.. عسى أن يهتدوا..

- يهتدوا.. اللهم اهدنا كما هداك.. و ارزقنا بسيارة كالتى معك.. أليست هى البى إم البيضاء التى هناك

- ورزق ربك خير..

- و رزق ربك هذا من أين جاء لك.. من الأفلام إياها

- استغفر الله.. تاب الله علينا الآن..

- نعم.. واضح.. و الآن تريدون أن تدخلوا الساحة بشكل خفى..

- هذا هو المقصد بإذن الله..

ضحك قليلاً بشئ من المرارة.. ما هذا التناقض.. يُكفّرون من يعمل بالسياسة و اليوم يريدون التحالف معهم.. ما أقذر تلك اللعبة تفضح كثيرًا خبايا كل واحد فيها فلا يستطيع فيرتدى وجهًا آخر يغير من حقيقته.. قد يخدع بعض الناس بذاك الوجه ذي الملامح الباسمة و لكن إلى متى؟...

- عمومًا سأخبر الكفار و آت بهم إلى يثرب يا سوسته.. اعذرنى غلبت الكلمة على فمى فهكذا عرفناك طوال حياتك يا شيخ حسين

* * *

- لا.. اهدأى قليلاً.. لن أذهب بعيدًا عنك أبدًا

- أليست هذه عمتك.. هى أولى بك آتية من بعيد و ترسل إليك خطابًا لتزورها فى فيلتها بالتجمع الـ... اقرأ الاسم .. أنسى دومًا تلك المناطق الفارهة

- أنا لا أجد سببًا لكل هذا الغضب

- لا تجد سببًا.. و كيف أشرح لك إن كنت لا تعلم السبب.. أنا أيها الجامعى الأنيق.. أنا السبب.. أبعد كل هذا تتركنى؟

- أقسم لك أننى لن أتركك يا سهام.. اهدأى قليلاً

- بل ستتركنى.. ستتركنى يا أحمد..

بعد تلك الكلمات داهمها الصرع فأطلقت صرختها المكتومة.. و سقطت على الأرض.. أخذ مسرعًا بمنديل من القماش من فوق المنضدة ليضعه فى فمها حتى يمنعها ذلك من عض لسانها أو الاختناق.. أمسك برأسها يمسح عنها التعرق حتى هدأت النوبة.. تداهمها أحيانًا عندما تغضب.. و لكن حقًا الأمر أصبح غريبًا.. لمَ كل هذا الانفعال لقاء جواب عادى..

الفصل الرابع

انتظر يوم الزيارة التى حددته العمة بهية فى فيلتها التى اشترتها حديثًا فى الإسكندرية.. فقد أصبحت شقتها القديمة فى العباسية لا تليق بمثلها.. أخفى عن سهام أن عمته ستكون فى الإسكندرية لا يعرف لم ربما لم يرد أن يغضبها أو يجعلها تخشى من أن يتركها كما صارحته و لكن هذا ما فعله.. عمته تحمل الجنسية الأمريكية و كذلك ولدها و بناتها الثلاث.. و على الرغم من تلك الجنسية إلا أنها استطاعت أن تحافظ على أولادها من فكر الغرب بالقدر الذى أمكن لها.. فبناتها يرتدين الحجاب و لكن بشكل غربى.. يتحدثن العربية بطلاقة و لكن تغلبهم الإنجليزية أحيانًا كثيرة..

هكذا يحاولن بنات مصر فى أغلب الأوقات.. تجعل من الإنجليزية بعض الكلمات فى فمها ربما تلك هى إحدى الطرق الحديثة لإيقاع النظر عليهن أو ليلفتن الانتباه.. أما الأمر بالنسبة إليهن لم يكن كذلك.. فإذا صعب عليهن كلمة بالعربية يعدن ذلك أمرًا محرجًا..

الكبرى اسمها دعاء و هى متزوجة من مصرى أمريكى أيضًا اسمه محمود.. عادت لمصر كى تحافظ على هوية أبنائها الصغار.. أما الوسطى

فاسمها جميلة لم ترجع من أمريكا و لا أظنها سترجع يومًا فشغل زوجها السورى الأمريكى لا يسمح لها أبدًا أن تعود إلى مصر.. أما الصغرى فهى جليلة و هى لا تزال آنسة و لدت فى أمريكا بعد سفر العمة إلى هناك لم يعرف عنها أحد.. و كذلك إسماعيل الصغير.. هو فى سن المراهقة و لكنه مثقف دينًا لم تنل منه أمريكا كما هو متوقع...

فى الزيارة الأولى له هاله مشهد لم يره من قبل تلك الفيلات التى تجاورت و على مسافات بعيدة تحيطها الحدائق و الخضرة من كل جوانبها.. حمام السباحة الذى كان يراه للمرة الأولى فى حياته.. و كذلك التحف التى ملأت المنزل فى كل جانب.. و على الرغم من دهشته إلا أنه لم يتأثر بالأمر.. و كذلك بدى عليه بصدق.. حتى أن عمته ظنت أنه يعيش فى نفس ذلك المستوى.. لم تكن تعرف عنه شيئًا منذ سافرت.. حتى أنها صدمت عندما سمعت بموت أمه.. و ظنت أن الأمر حديث.. و لكن عندما أسرد الأمر حطت رأسها فى الأرض خجلًا.. ربما كانت تلوم نفسها أنها لم تكن تسأل على ابن أخيها الوحيد كل تلك السنوات.. بدأت الأفكار الغريبة تجوب رأسها.. ربما تخيلته فى ملجأ أيتام مثلًا..

- اسمح لى بهذا السؤال يا بنى.. و اعذرنى فيه.. هل تعلمت؟

نظر اليها بعين كادت أن تدمع.. تذكر حينها سهام.. و تذكر أن لولاها لما سنحت له الفرصة لأن يكون على ما هو عليه.. و لكن سرعان ما تدارك

الأمر و أجاب بإمائة من رأسه و قال

- اقتصاد و علوم سياسية

فرحت كثيرًا و بدى على وجهها الابتسام عندما قال ذلك.. ربما بالغت في القسوة على نفسها

- و أين تعمل؟

- نعم.. أعمل في شركة كمحاسب صغير

- قل لى الحقيقة.. و لا تمزح معى.. بالتأكيد أنك فى السلك الدبلوماسى

أثار ذلك ضحك أحمد بشكل كبير و لكنه أدرك نظرات عمته و ابنتها دعاء.. فقد بدى عليهما ظن السوء به.. ربما يسخر منهما أو شئ كهذا

- لا.. أقسم لك أننى لا أمزح أبدًا.. هذا عملى فعلًا.. فى مصر لا يدخل السلك الدبلوماسى إلا من كان أهلًا له.. و الأهل هنا فى مصر لهم شأن آخر

- و مالك تتحدث عن الأمر بهذا الضحك كأن الأمر لا يهمك

سؤال طرح من دعاء بدهشة و تعجب من تلك الضحكات التى يرمى دون أن يبدو عليه اهتمامًا بالأمر

- هو كذلك فعلًا.. إنك لم تدركى الأمور بعد.. و لا أظنك ستدركيها

عن قريب..

قالت دعاء بدهشة شديدة..

- و لم؟؟ هل تظن فينا الغباء؟

- لا تسيئى الظن فىَّ يا دعاء.. أعرف أن الأخبار كانت تصل إليكم عن مصر لكن صدقينى معايشتها شئ آخر.. فقط أنت تحتاجين إلى وقت طويل حتى تخبرى الأمر و تفهمى قصدى...

التفت ينظر حوله ثم سأل بصوت خافت

- أين زوج عمتى؟.. و أين بقية العائلة لم أر أحدًا منهم بعد

- زوج عمتك سيأتى غدًا فهو لم يصل بعد من أمريكا.. أما البقية فى الأعلى..

- جميلة أليس كذلك؟

- لا جميلة مع زوجها فى أمريكا.. أما التى فوق هى جليلة و إسماعيل

- لم أعرفهم يومًا.. كانت أمى تحكى لى عن دعاء و جميلة فقط

- نعم.. هذا هو آخر العنقود إسماعيل

نزل إسماعيل مسرعًا وسلم على أحمد بشوق شديد.. كان يحلم دومًا أن يكون له أخ يكبره فهو لا يجد فى أخواته من يملأ حاجته لصديق.. كان

ودودًا جدًا في سلامه على أحمد...

- منذ صغرى تمنيت أن يكون لى أقرباء..
- هذا إذا ما تمنيت قريبًا واحدًا فقط من ناحية الأم..

ضحك إسماعيل بشئ من السعادة التى ملأت وجهه و قال

- هذا يكفي.. فقط ليتنا نكون أصدقاء
- هذا أمر يسعدني جدًا

بعد قليل من الحديث مع إسماعيل عن الحياة الأمريكية و الأسلوب الغربي الطاغي.. سمع صوت بيانو.. تمتع منذ أن كان صغيرًا بأذن موسيقية.. و اعتاد أن يذهب إلى دار الأوبرا كثيرًا يحضر الحفلات الموسيقية و الأوبرا و هو في الجامعة كان يعد نفسه ليصير دبلوماسيًا فحرص على أن يكون مثقفًا بقدر الإمكان.. كان هذا يثير سخرية بعض أصحابه و لكنه لم ينتبه لما يقولونه يومًا.. لذلك كان يعرف أن تلك المقطوعة التي يسمعها هي لشوبان ماهرة في العزف بالتأكيد.. لا يقدر على عزف تلك المقطوعة غير المتمكن حقًا من الأمر.. سأل عمته في البداية عمن يشغل الراديو بصوت عال.. و لكنه عندما عرف أن ابنة عمته هي من تعزف بدى على وجهه سعادة و شئ من الإعجاب حتى من قبل أن يراها.. لطالما حلم أحمد أن يتعلم العزف على آلة ما.. و لكن الأمر كان مستحيلاً.. من حيث التعلم و من حيث

الفقر.. لذلك آثار الأمر عنده فضولاً شديدًا أن يرى تلك الساحرة التـى تملـك تلك الأنامل الذهبية التى تعزف بها تلك المقطوعة العبقرية.. لذلك تلاشـت كل الأصوات عدا صوت البيانو.. كانت أنفاسه تتسارع مع النغمات و تتباطـأ معها.. و ما أن انتهت المقطوعة حتى وقف يصفق بشدة.. تعجبت عمته مـن ذلك بشكل بدى على وجهها.. ربما يبالغ فى الأمر قليلاً.. و لكنهـا لم تكـن تعرف أن ذلك أيقظ فيه حلمًا قديمًا..

كان إذا سمع البرنامج الموسيقى فـى الراديو مثلًا.. أثـار ذلـك ضـحك البعض و التندر من البعض.. و الغضب .. كل حسب بيئته التـى نـشأ فيهـا من أصدقائه.. منهم من يلعنه كأنه يشعوذ مثلاً.. و منهم مـن يغلـق الراديـو بشكل فيه بعض من القسوة ينهاه عن تلك الحرمـة و يحـذره مـن الرصـاص الذى يـصب فـى أذن مـن يـسمع الموسيقى.. لذلك لم يكـن انفعالـه حينهـا غريبًا...

سمعت جليلة هذا التصفيق الحاد و الصخب الذى أحدثه أحمد.. نظرت من أعلى ثم قررت أن تنزل فتعرف ما سر ذلك الصخب...

الفصل الخامس

لم تسأل الشمس يومًا من أين تأتى بنورها.. لا أظنك فعلت.. و إن فعلت فلن تجد منها جوابًا.. فقط كفاك ان تعرف انها الشمس فتتلمس نورها و تتلمس الدفئ منها ايام الشتاء..

نزلت جليلة بخطوات هادئة بطيئة من السلم الذى توسط الصالة حيث يبدو احمد من بعيد.. لم تكن تعرفه بالطبع.. و لكنه عرفها منذ اللحظة الاولى.. لم تكن كبقية من رأى من النساء.. كانت عينها تصرخ بسرها و بقوة شخصيتها.. متكلمة مثقفة.. على دراية بمجريات الامور السياسية .. بالطبع كان منجذب اليها بشكل كبير.. و لكنه اكتفى فى بداية دخولها بالوقوف و على العكس من الصخب الذى أحدثه منذ قليل كان صامتًا فقط ينظر على استحياء إليها.. خجلًا مما فعل منذ قليل.. و ربما خشى أن يساء فهمه فآثر الصمت.. و لكنها هى من بدأت بالكلام.. لم تسأل من هذا؟ بكلام.. فقط نظرت لأمها فأجابتها : هذا هو أحمد ابن خالك طلعت رحمه الله...

مدت يدها مسلمة عليه بثقة و نظرة غير مرتبكة و لا يشوبها خجل..

ظلت هنيهات ناظرة إليه.. منتظرة منه الحديث و لكنه خجل.. كان يشيح بوجهه عنها فبادرته هي بالكلام..

- هل أنت من أحدث هذا الصخب منذ قليل؟

اضطرب من السؤال حقاً.. شعر بخجل شديد.. و بدأ و جهه في التلون قليلاً.. حاول أن يجيب فكان صوته محشرجًا.. حاول أن يصلح منه و أجابها

- في الحقيقة أنا آسف للإزعاج.. و لكن اعذريني تلك هي المرة الأولى التي أسمع صوت بيانو في المنزل..

- أعجبتك تلك المقطوعة..؟

- بالطبع شوبان رائع دومًا.. و أنت أحسنت العزف فعلاً

قاطعته العمة في الحديث و قالت

- لم تسمعها تعزف أشياء أكبر من تلك المقطوعة..

- حقاً..

للمرة الأولى يظهر بعض الخجل في وجهها

- أمي تبالغ قليلاً..

قاطعت دعاء الحديث مستأذنة فقد كان وليدها يبكي.. ساد الصمت للحظات ثم سألته جليلة بشكل فجائي

- هل تدرس فى الجامعة؟

- لا بل أنهيت دراستى منذ أشهر.. كلية اقتصاد و علوم سياسية

- أنت سفير إذًا..

- لا فى الحقيقة لست كذلك..

- إذًا أنت تعمل فى السياسة.. سياسي.. حزبى.. نقابى

اكتفى بهزهزة رأسه أن لا.. بالطبع تلك الأسئلة جاءته فى مقتل.. ربما صدمته بواقع نسيه للحظات.. ربما بدأ قلبه ينبئ عن حب ينبت.. و لكن سرعان ما اسقطته تلك الأسئلة العادية على أرض الواقع.. تبدل وجهه المبتسم و سرحت عيناه قليلاً.. فأدركت جليلة أن فى الأمر شئ بذكاء تعدت الأمر بسؤال آخر..

- ما سر حبك للموسيقى إذًا..؟

- الموسيقى بالنسبة لى حياة.. كم كنت أتمنى أن أتعلم يومًا العزف على آلة مثل الكمان..

- الكمان.. ها ها.. أنت شاعرى إذا..

- أحيانًا عندما أكون وحيدًا فقط..

- هل أنت شاعر إذا؟

- نعم أكتب بعض الشعر و لكن ليس بجودة عزفك للبيانو..

- لطالما تمنيت أن أكتب شعرًا.. و لكن محاولاتى كانت ضعيفة جدًا

اكتفى حينها بالابتسام.. فألمحت عمته إلى شئ ما خطر ببالها و لكن بكلمات عابرة

- إذا تعلمها بعض الشعر و قواعده..

نظر إلى عمته و بدى على وجهه السرور لقولها و قال

- إن شاءت ذلك.. فهذا يسعدنى..

نظرت إلى أمها بشكل فيه بعض الخبث.. تحذرها من الخوض فى ذلك و قالت

- ماما..

نظرت إليها أمها و قالت

- ألم تكونى تريدين من يعلمك.. هذا هو ابن خالك إذا

شعر حينها ببعض الخجل.. فاستأذن للرحيل.. ثم قالت له عمته

- سننتظرك يوم الخميس القادم للغداء.. و حتى تعلّم جليلة بعضًا من الشعر

عاودت جليلة النظر إلى أمها ثانية منبهة إياها بقولها

- ماما..

كان الوقت قد تأخر عليه الآن أن يعود إلى البيت فلو عرفت سهام

بالأمر ستفسد عليه حياته.. لا شك أنه يحبها و يخاف أن يغضبها لا لمرضها بل إن الأمر أكبر من ذلك.. يتذكر عندما كان في العاشرة و قامت ثورته و كسر بعض الأطباق في المنزل لا يتذكر سبب غضبه.. و لكنه كان صبيًا يتيمًا كثيرًا ما يغضب.. لم يكن لسهام ردة فعل يومها غير أنها أغلقت الباب على نفسها.. و قاطعته يومًا كاملًا.. ظل هذا اليوم إلى جوار الباب ينتظر أن تخرج فيعتذر لها عما بدر منه.. و في صباح اليوم التالى فتحت الباب لتجده لايزال يجلس على الأرض منتظرًا أن تخرج فيعتذر لها.. جلست على الأرض أمامه و قالت له.. لا تبك لا أحب أن أرى دموع رجل أبدًا.. ثم ضمته وأمسكت برأسه بين يديها و قالت : لا تغضبني ثانية لم يعد لى في تلك الحياة غيرك.. أتفهم؟

منذ ذلك اليوم لا يغضبها و لا يرد عليها مهما كانت ثورتها و انفعالها عليه.. بالطبع للمرض ذلك الأثر الانفعالى أحيانًا..

* * *

الأستاذ ماهر المحامى يسكن في الطابق العلوى.. توفت أمه رحمها الله في العام الماضى.. و بالرغم من وصيتها بأن يتزوج لم يفعل بعد.. يحب سهام منذ أن كان في الجامعة و بالرغم من عمره الأربعينى لا يفكر في غيرها.. يعرف عنها كل شئ.. و هى تعرف حبه ذاك.. و لكنها تكابر .. وصل هذا الحب منه حد الجنون.. في يوم أتى بلفافة من الورق الأصفر و قد

اتخمت بنقود وضعت فيها.. فتحت سهام باب الشقة فوقف أمامها و وضع اللفافة على الأرض أمام قدمها و قال :

- هذا كل ما أملكه.. تحت قدميك.. أرجوك لا ترديني

نظرت إليه بعين بدت فيها الدموع ثم شاحت بوجهها عنه.. و ضحكت بشكل جنوني.. تفعل ما تفعله دومًا تجعل منه لاشئ.. ثم قطعت ضحكاتها و أجابت بشئ من الغضب

- هذا ما تفكر فيه إذا.. لست بغيًا أيها الأحمق تشترينى بالنقود.. اذهب

أغلقت الباب في غضب شديد.. كان أحمد يرقب الأمر من بعيد.. فى الحقيقة كان متعاطفًا جدًا مع ماهر.. يعرف أنه يحبها فعلًا و لكن لا يعرف ما سر هذا العزوف عن الزّواج.. على الرغم من أنها كانت لا تستطيع أن تخفى حبها لماهر.. أغضبها ذلك منه بشدة.. شعرت بمهانة شديدة من فعلته و لكنها كتمت الأمر لم ترد يومًا أن تعطيه ذلك الأمل فى الزواج منها.. و لكم تمنت لو كان تزوج بغيرها.. قبل موت أمه قبلت الزواج منه و كانت سعيدة جدًا و لكن أمه كانت لا تحبها.. فى يوم جاءت إليها تحذرها من أن تقترب من ابنها.. كانت قاسية جدًا عليها فى الحديث اتهمتها بأبشع اتهام قد يدمر امرأة.. لم تنس يومًا ذلك حتى بعد ما ماتت أمه..

يومها اعتكفت فى غرفتها كما كانت تفعل دومًا.. استأذن أحمد فسمحت له بالدخول..

- هل ممكن أن أصارحك بأمر ما؟
- إن كنت ستتحدث معى عن الزواج فاخرج.. لا أريد أن أسمع
- اهدأى قليلاً.. فقط أريد أن أقول إن ماهر يحبك فعلاً
- صرت ثقيلة على قلبك إذًا.. تريد التخلص منى أليس كذلك؟
- لا.. أبدًا.. أنت تعريفين ماذا..؟

مقاطعة له

- ماذا يقول الناس عنى؟.. أليس كذلك.. ليقولوا ما شاءوا.. خالتك أقصد أمى كانت تتزوج كلما انقضت عدتها.. تأتينا بالأوباش.. ماذا كان يقول الناس عنها؟.. فليذهبوا جميعًا للجحيم.. أنا لا أهتم..

أفضى الحوار كالعادة إلى لاشئ.. أحيانًا يشعر أحمد أنها محقة فى كلامها و لكن الأمور لا تكون هكذا أبدًا..

* * *

تمنى أن لو كان كذبه على سهام عندما قال لها إن عمته تسكن فى القاهرة و قد تركت شقتها القديمة فى العباسية حقيقة.. خشى حينها أن يقول لها على الحقيقة و أنها فى الإسكندرية أو على مقربة منها و ليست فى القاهرة.. هذا ما ظنه فى بداية الأمر.. فقد نبض قلبه بحب جليلة منذ

بداية أن سمع صوت عزفها على البيانو.. لطالما بحث عن تلك الفتاة غير الفارغة.. حاول أن يدفع الفكرة بعيدًا عنه و لكن القلب غالب.. لا يدفعه أحد إلا هلك به.. التجأ كالعادة إلى شاطئ البحر ليحكى له ما يكتمه عن الناس فصديقه الوحيد الذى بقى إلى جواره هو البحر.. كانت سهام تعرف مكانه دومًا الذى يلجأ إليه و بالرغم من كذبه كانت ترى كل شئ في عينه.. لا يستطيع أن يخدعها كثيرًا.. سرعان ما قد وجد سهام إلى جواره واضعة يدها على كتفه ترتدى شال أمه على كتفها.. كان هذا الشال هو ما بقى من الحضن الذى كان يضمها بحب صادق.. و كان يجد فيه أحمد أمه.. يرمى برأسه على كتفها فيرتاح من كل همومه.. على مقعد وضع على الشاطئ جلست إلى جواره.. لحقت به عندما أحست أنه مهموم..

- أهذا هم جديد..؟

- أهلا سهام..

- أريد أن أتمشى قليلًا على الكورنيش.. هيا بنا

قام ليشترى بعض الذرة المشوية التى يعشقها و مشيا سويًا إلى جوار البحر.. ظل صامتًا فترة.. ثم بادرته بالكلام قائلة

- ذهبت عند عمتك.. أليس كذلك؟

- بلى..

- و لما لم تخبرني؟

- خشيت أن تغضبي.. من أين عرفتِ أنني ذهبت إليها؟..

- أنا من ربيتك أعرفك أكثر منك.. تركت الجواب على مكتبك.. أبله

- كنت.. كنت سأخبرك

قاطعته و قالت :

- الذى في عينيك هذا إمّا هم و إمّا حب يا ابن خالتي

نظر إليها بتعجب شديد فقالت :

- ماذا؟!.. كنت تظن أنني لا أفهم.. لا تقلل مني يا أحمد

و أشارت إلى رأسها و رسمت على وجهها ابتسامة صفراء ثم أردفت قائلة

- إذًا هو..

- أنا..

- لا تبرر هذا حقك.. أعرف منذ أمد أنّ هذا اليوم سيأتي لا محالة بل إني تمنيته كثيرًا.. ما اسمهّا؟

- جليلة..

- يااااه.. اسم قديم جدًا.. و لكنه جميل.. أهي جميلة كذلك؟

- لا أعرف..

- لا تعرف ماذا؟

- لا أعرف إن كنت أحببتها حقًا.. و إن كنت أحببتها.. فماذا يعني الحب بالنسبة لمن هو مثلي.. الأمر محال

و ضعت يدها على خديها و نظرت للبحر و أطالت النظر فيه.. ثم قالت:

- أكلت؟

- ماذا.. آه نعم.. لا لم آكل بعد

- إذًا هيا بنا.. سأعزمك على أكلة سمك

- إذًا هيا.. واضح أن المرتب قد وصل اليوم

الفصل السادس

- الأستاذ ماهر.. تفضل

- لا.. شكرًا.. الحق بى على الكورنيش.. سأنتظرك فى محطة الرمل عند القنصلية الإيطالية.. لا تتأخر

- حسنًا.. سألحق بك فورًا

كان مضطربًا إلى حد بعيد.. يرتدى بالطو طويلاً بالرغم من أن الأمر لا يستحق فالحرارة معتدلة لا تحتاج إلى كل هذا البالطو.. ترى ماذا يريد.. وصل أحمد إلى حيث اتفقا.. كان ماهر سرحًا بنظرة عميقة إلى البحر حتى أنه لم يشعر بيد أحمد التى على كتفه.. لطالما كان ماهر رجلاً خدومًا يحبه من فى المنطقة كلها لا يؤخر طلبًا لأحد هكذا عرف منذ زمن.. غير أن حاله قد تبدل بعد موقف سهام الأخير.. فاستهتارها به بلغ منتهاه.. قرر أحمد قبل أن يذهب حتى أن يعتذر له عما بدر من سهام.. و لكن بأى وجه.. ربما يلتمس العذر منه أو يلمح إلى ذلك.. و لكن الغضب الذى كان على وجهه كان مخيفًا..

- ها قد جئت يا أستاذ ماهر..

- أهلا يا أحمد.. كيف هى أحوالك؟

- أنا بخير.. أما أنت فلا تبدو كذلك

- هه.. جئت اليوم.. جئت اليوم أحذرك..

- تحذرنى.. مم؟

- منى..

- منك!!.. أنا لا أفهم شيئًا

- نعم.. لم أعد بهذا الاتزان الذى كان من قبل.. حتى أننى فكرت أن أقتلها

- تقتل من؟.. سهام

نظر إلى أحمد بعين لمعت و بها بعض الضعف و كشف عن سكين حملها فى جيب البالطو.. سكينة غريبة كبيرة جدًا.. نظر أحمد إليه بعين شفقة و خوف شديد.. و بالرغم من ذلك هو يعرف أن ماهر أضعف من أن يقدم على شئ كهذا.. أدرك حينها أن ماهر يحتاج لمساعدته و لكنه قد شرد عما يريد فكر غريب.. ربما تصنع الوحدة أكثر من ذلك..أو لعله لجأ لشئ غيب عقله ظنًا منه أنه سينسى...

- خبئ هذه يا أستاذ ماهر.. نحن فى الشارع.. أنت أعقل من ذلك

أمسك بالسكين ثم رفعها غير عابئ بمن حوله بدأ الناس يتوقفون

ينظرون لذلك الرجل الغريب الذى يرفع سكينًا كبيرًا بهذا الحجم فى الشارع.. نظر إلى السكين و أطال فى نظرته و كأنه يراها للمرة الأولى.. ثم بشكل سريع ألقى بها فى البحر.. كان الموج يومها عاتيًا بالرغم من اعتدال الجو.. و لكن كأن البحر قد ثار لثورته تلك.. نظر إلى الأمواج و هى تتلاطم.. ثم أخذ يبكى بشدة بشكل غريب.. لم يشأ أحمد أن يقاطع تلك اللحظات.. ثم التفت إليه ماهر و أمسك بكتفيه وقال باكيًا :

- لا أستطيع العيش بدونها أتفهم؟.. أحبها بغير خوف أو حياء.. لا أعرف لماذا تعاملنى بهذا الجفاء..

- اهدأ قليلًا يا سيد ماهر.. الناس تنظر إلينا

- لم يعد يهمنى الناس.. أريدها فقط.. أنت لا تعرف معنى أن تعيش وحيدًا.. محرومًا ممن تحب.. ألف طعنة بتلك السكينة التى ألقيتها لا تساوى لحظة واحدة تكون وحيدًا فيها.. أو أكون بعيدًا عنها.. من هو فى مثل عمرك لا يفهم ما أقول..

آثر أحمد الصمت حينها على الرغم من اتهام ماهر له باتهامات غريبة.. فهو يجعله السبب الأول لرفضها الزواج منه.. بالطبع يصله من الناس ما لا يحب أن يسمع عنها..

رجع أحمد إلى البيت و ظل سرحًا ساعات طويله.. أهمه ما قاله ماهر..

لم يعد هناك بد من أن يحل الأمر.. فسهام تخاف من الزواج تخاف من المرض.. حتى أنها تخاف من الحب.. بالطبع هى تحب ماهر و لكن تخشى أن تبوح بالأمر.. فالزواج بالنسبة لها مستحيل.. هى تراه كذلك ربما تبالغ فى الأمر و لكن إن عرفت أن الطبيب قال لها إن المرض سينتقل إلى أولادك إن تزوجتى.. قد يتضح الأمر أكثر.. ثم عاوده من جديد شجون جليلة.. ترى أترضى أن ترتبط بواحد مثله لا يملك فى الحياة أى شئ.. و هل ترضى أن تكون سهام معهم و هل ستكون الأمور هادئة يومًا.. تساؤلات من البديهى أن تكون الإجابة عنها مبهمة..

* * *

مرت الأيام سريعًا و جاء يوم الخميس الذى كان ينتظره.. اليوم سيراها من جديد حقًا هى المرة الثانية.. و لكن بالنسبة له هى الألف فصورتها لم تبارح فكره..

كانت ساحرة فى تلك المرة عن التى سبقتها حتى إنه لم يكن يتحدث بالقدر الذى يسمعها.. يدعها لتقول ما تشاء عن أى شئ.. واضح أنها محبة للفلسفة بشكل غريب.. قالت فى جملة رشيقة صارخة بالحياة :

- لا تحتاج المرأة ان تتعرى مثلا كى تظهر مفاتنها.. ربما كان يكفيها أن تظهر من جمال لسانها و كفى..

كان الحديث حينها عن فلسفة الجمال.. أدرك حينها معنى ما قالته

بشكل آخـر.. يكفـى للمـرأة أن تقتـل بكلمـات خفيفـة كتلـك التـى تقـول.. فسلاحها القتال يكمن فى ثغرها هـذا و إن كـان صـغيرًا.. و فـى عينهـا مـن نظرات و إن كانت سريعة خاطفة...

عاد إلى منزله من جديد و قد أصاب السهم قلبـه و جرحـه غـائرًا هـذه المرة.. و لكنه كان يدرك أن سهم الحب هذا الذى أطلق سبقه بسنوات سـهم برؤوس عدة ليقتله...

* * *

ياسر شاب ذكى متأنق دومًا يهتم بمظهره كـثيرًا علـى الـرغم مـن أنـه عضو فـى حـزب اشـتراكى قـديم.. يـؤمن فعلـًا بالاشـتراكية للمـساواة بـين الناس.. يعرف أن عبد الناصر لم يكن اشتراكيًا كما ينبغى لذلك دومًا ما كان يقول إن عبدالناصر جعل من الاشتراكية توزيعـًا للفقـر بـين النـاس.. ربمـا كانت نيته صافية أو رأى ذلك مـن العـدل بمكـان و لكـن حيـاة الـشعوب لا تأخذ بالنيات.. دومًا ما كان يشاع بـين رفقائـه أنـه مـن طبقـة أرسـتقراطية بالفعل.. حتى إنهم أطلقوا عليه الكونت ياسر.. كان لقبًا فى محله فعلـًا.. و لم يكن أحد منهم يعرف أن ياسر هذا أو الكونت ياسر ابن عامـل فقـير فـى مصنع غزل بالإسكندرية حتى أن أحمد كان ينسى ذلـك الأصـل عنـدما كـان يراه فى الجامعة.. أحمد بالنسبة له صديق قديم من الثانوية.. كان معه فـى المدرسة و معظم الدروس الخصوصية.. شاء القدر أن يجمع بينهم فـى نفـس

الكلية.. فى الجامعة العلاقات قد تكون مختلفة بعض الشئ عما قبلها.. ربما تنشأ صداقات جديدة.. و من بين تلك الصداقات صديق مشترك.. عرفوه فى الجامعة.. شاب متنور و متدين إلى حد ما و لكنه لم يكن على غرار سوسته بل كان على علم حقيقى تربى عليه منذ كان صغيرًا..أو هكذا كان يبدى دومًا فأبوه عضو فى مكتب الإرشاد الإخوانى.. شاء القدر أن يجمع صبرى عبد الغفور مع أحمد فى غرفة واحدة فى المدينة الجامعية.. و من هنا نشأت بينهم صداقة حقيقية.. و لكن صبرى كان شخصًا غامضًا لا يحب أن يتكلم عن نفسه أو عن أى شئ.. دومًا ما كان كلامه فى السياسة أو الدين أو تعاليم البنا التى كان يحفظها عن ظهر قلب.. كان أيضا يعرف أن لأحمد علاقة بكل التيارات السياسية.. و قد استغل ذلك هو أيضًا فكان يجعل لأحمد نصيب فى بعض الاجتماعات السرية لهم بعيدًا عن أعين أمن الدولة.. كنوع من أنواع التمويه..

كان لإبراهيم فؤاد مكانة خاصة ايضًا عند أحمد فإبراهيم والده كاتب صحافى فى الأهرام.. أيضًا متفتح و بليغ الكلام و مثقف لدرجة يعجز أن يجاريه أحد من زملائه فى الأمر.. و لكنه علمانى بشكل صارخ.. بالنسبة له الدين مظهر من مظاهر الحياة.. و الإنسان بخلقه فى نهاية الأمر و هذا ما يحكم به يوم الحساب.. لطالما ما قلل من شأن من حوله مستعينًا بثقافته المهولة فى الرد على أى ادعاء.. متشددًا فى علمانيته لدرجة تجعل من

ولائه للفكر الغربى أكثر من أى شئ فى الحياة.. لذلك كان أحمد دومًا ما يتجنب الحديث معه فى الأمور الدينية خاصة أنه حاول مرارًا قبل ذلك دون فائدة...

* * *

فى ذلك اليوم كان زوج عمته قد رجع من أمريكا.. رجل هادئ الطبع لا يتحدث كثيرًا غير أن لسانه قد أصبح ثقيلاً بعض الشئ فى العربية و لكنه لا يزال يتحدثها جيدًا.. اكتفى أن شاركهم الطعام ثم دخل إلى غرفة مكتبه و لم يلبث إلا قليلاً حتى دعا أحمد لشرب الشاى معه فى المكتب.. كان غرضه فى بداية الأمر أن يستوضح منه بعض الأمور العامة فى البلاد.. أخطأ عندما رجا ذلك من شاب من هذا الزمان.. يقول البعض إن هذا الجيل قد أحبط بشدة و لكن هذا الجيل لا يدرك غير اللون الأسود الذى طبع على كل شئ فى حياته.. لا أمل.. و لا رجاء فى الأمل.. و لا يمكن أن تقيد شمعة و إن أشعلتها لن تمثل فارقًا فى هذا الظلام.. هذا ما كان يراه أحمد فى بلد يرجو أن يعيش فيها و هى تأبى إلا أن تقتله..

- أنت دارس للاقتصاد بالطبع كما علمت من عمتك.. أريد أن أعرف منك بعض تفاصيل السوق.. و ربما استعنت بك فى أمور شتى..

- فى الحقيقة هذا شرف لى و لكنى لن أفيد بالقدر الذى تتوقعه منى..

- ألست دارسًا جامعيًا..

- نعم.. و كدت أن أكون معيدًا فى يومٍ ما..

- ما المشكلة إذًا..؟

- لا مشكلة.. الأمر هنا فى مصر يقوم على شئ واحد الاحتكار.. اقتصاد مصر كلها فى يد حفنة من رجال الأعمال.. و الكل تحت طاعتهم..

- إذا..

- إذا عليك أن تتوصل إليهم بحال ما يعينوك على ذلك.. لا حاجة لك لمن هو مثلى.. أنا ما أنا عليه مجرد محاسب فى شركة بسيطة

ربما يكون قد أخطأ.. فالأمر خاص به أو ربما كان للأمر عنده حسابات أخرى.. كان حوارًا عقيمًا مملًا بقدر كبير و مع ذلك حافظ على ابتسامته و صورة الرضا على وجهه.. و لكن فى نهاية اللقاء تحول بشكل مفاجئ إلى الاحتدام النفسى بينهما.. حيث استوقفه صوت زوج عمته.. لاحظ منذ قدم على مأدبة الغداء النظرات فيما بينه و بين ابنته جليلة تلك النظرات لاتخفى على رجل فى ذكائه الذى جعل منه صاحبًا لملايين الدولارات خلال سنوات تعد قليلة بالنسبة لثروته...

- لا أريدك أن تقترب من جليلة أكثر من ذلك

- لا أفهم قدصك..

- لا بل تفهم.. و لا أريد أن أحدثك في الأمر بعد الآن

- أنا...

مقاطعًا له

- اسمع يا أحمد أنت شاب ذكى.. يمكننى أن أقدم لك الكثير.. وظيفة بمرتب مجزى.. او أى شئ تريده.. و لكن ابنتى لا.. تفهمنى طبعًا...

فى الحقيقة أراد أحمد أن يخرج من الموقف هذا بشكل سريع..

- أستأذنك يا عمي.. عليّ أن أذهب الآن

أغلق الباب و استأذن من عمته و انصرف و فى نيته ألا يعود إلى هنا ثانية أبدًا..

الفصل السابع

في أوقات الامتحان تخلو بعض الغرف في المدينة الجامعيـة.. فـبعض الطلاب يؤثر أن يكون في بيته في تلك الأيام.. و على العكس هناك من يؤثر أن يكون فـي المدينـة مـن الطـلاب.. كـان مـن هـؤلاء الكونـت ياسـر.. ذلـك الأرستقراطي المزعوم.. في ذلك اليوم كان أحمد يجلس وحيدًا في غرفته.. لم يكن ينوى أن يعود إلى الإسكندرية فـي ذلـك اليـوم فلـم يبـق الكـثير حتـى يضيعه في السفر.. في الليل شعر بقدم يرن صوت صداه في بهو مسكنه فـي المدينة.. لم يكن هناك زحامٌ قد يخفض من هذا الصوت.. فتح الباب مسرعًا لينظر من صاحب تلك القدم.. وجده الكونت ياسر قد خرج من غرفته يمشى في المر بعض الوقت.. و لكنه بحالة سيئة.. يبدو عليه البؤس بـشكل غـير معهود عنه.. التفت سريعًا عندما أحس بأحمد يمشى نحوه على الـرغم مـن أنه كان حافي القدمين.. كان الدمع يقـف علـى عتبـات عينيـه لا يـسمح لـه بـالخروج فيرحمـه مـن ضـيق صـدره.. يحتـاج أن يكلّـم أحـدًا يعرفـه علـى حقيقته..

- أحمد!!.. تصورت أنك سافرت..

- لا لم يكن هناك متسع للسفر.. مالك سيدى الكونت

- كف عن هذا المزاح.. أحتاج أن أتكلم معك قليلاً..

- بالطبع تفضل..

- ماذا تعرف عني يا أحمد؟

- أعرف أنك من النبلاء..

- دون مزاح..

- حقاً أنا لا أمزح.. أنت كذلك رجلٌ خلوق و مهذب و مهندم.. شاب على مصر أن تفخر بمن مثله

- تبالغ في المزاح.. أنا أشعر بضيق في صدرى.. أختنق

- قل لى مالك يا ياسر

- أمى.. أمى تحتاج إلى عملية خطيرة في القلب.. لم أعد اتحمل هذا.. تعرف أن الأمر كله في رقبتى منذ أن مات أبى..

سمع أحمد منه باهتمام لأمره بدى على وجهه.. هو يعرف أن ياسر يعمل في جريدة كاتب صحفي.. بالكاد يستطيع أن يعيش بمرتبه الزهيد الذى يتقاضاه من الجريدة..

- لما لا تكلم رئيس التحرير لجريدتك في الأمر ربما تجد عنده من يساعدك؟

- من يساعد من هو مثلي يا أحمد.. ألست مصريًّا.. ألا تعيش معنا

- نعم أفهم.. و لكنها محاولة

- و من قال لك إنني لم أحاول.. حاولت.. أنا أحاول منذ أن ولدت.. أحاول أن اكون إنسانًا في بلدي.. أنا راضٍ أن أعيش بأقل شئ.. و لكن حتى اقل شئ لا أجده..

- كلنا نعرف ذلك و نسعى إليه

- كلكم.. من كلكم.. أنتم لا تعرفون عني شيئًا.. ربما أنت فقط.. و لكن كل من هنا لا يعرفون أكثر من كوني الكونت.. أنا لست ما أنا عليه.. لست تلك البذة التي لا أملك غيرها.. و لست هذا الأنيق الذي يتحاكون عنه.. كل ما أريده الآن.. أمي.. كيف أتركها على هذا الحال.. ستموت إن لم تُجرِ تلك الجراحة..

كان تذكره لأمه كافيًا لأن يحرر دموعه التي يمسكها منذ قدم للجامعة .. في الحقيقة أي شئ يمكن أن يصنعه هو.. أو يصنعه أحمد.. لم تكن مشكلة فرد واحد بل إنها مشكلة دولة و مجتمع.. ثورة طبيعية كانت نابعة من فوهة بركان خامد اسمه الفقر و قلة الحيلة.. بركان سيأتي على الأخضر و اليابس.. لم يكن حديث الفوران و لكنه يغلي منذ عقود.. ربما ستتعجب أن الكونت ياسر هذا كان جده لأمه باشا حقيقي.. إقطاعي قديم و لكنه أمم

بشكلٍ جائر و ترك من بعده كفافًا.. مئات الأفدنة من أرضه تحولت إلى بـور و أرض مباني.. ربما كان محقاً في نظرته لعبد الناصر عنـدما قـال إنـه وزع الفقر بين الناس..

* * *

كان في تلك الليلة هائمًا يمشي على الكـورنيش كعادتـه يـوم العطلـة و لكن السير دون هدى لم يكن من عادته يومًا.. ظل يمشي بعيدًا حتى وصل إلى حيث يرى فيلة عمته.. حقاً هو محروم من أن يذهب إلى هنـاك.. يكفـي مـا صرّح به زوج عمته بالابتعاد عن جليلة.. بشكلٍ قاس.. هذا مـا خـشي منـه أحمد في ذلـك اليـوم.. كـان يريـد أن يراهـا بـأي ثمـن.. و لكنـه وقـف إلى الرصيف المقابل للفيلة.. كان صوت البيـانو مـسموعًا لـه فـي الخـارج كانـت تعزف فالس رائع.. ثم سرعان ما بدأ المطر في النزول.. على الرغم من المطـر ظل واقفاً ناظرًا إلى شرفتها المضيئة.. و ما أن فرغت من العزف قامت لتغلـق شرفتها أسرع في الرحيل و لكنها رأته من بعيد كانت متشككة أهو أم آخـر يشبهه.. و لكن تيقنت من أنه هو.. لم تكن رأته بعين الوضوح و لكن أيقنت ذلك في نفسها.. شئ مـا أخبرهـا أنـه هـو.. ربمـا تمنـت هـي الأخـرى أن تراه...

* * *

ألمّ به البرد من بعد ذلك اليـوم.. لازم الفـراش كـثيرًا و لم يكـن يفعـل شيئًا سوى الهذيان.. بكل شئ يريد قوله و يخجل منـه.. يهـذى بمـا قالـه

أبوها يوم كان عندهم.. يهذى باسمها و بخلجات نفسه عن غير وعى.. بالطبع كان لابد لسهام أن تسمع ما يقول و تدرك ما الذى يخفيه عنها.. ربما شعرت بشئ غريب للمرة الأولى تشعر به.. شعرت بأنه يختطف منها.. لا كحبيبة بل كأم تغار على وليدها و تخاف أن يبعد عنها.. لم تنكر هذا القلق أبدًا.. بل كانت تتذكر صورته و هو يلعب فى الشارع مع الأولاد و ترقبه من الشرفة حتى تحميه ممن يؤذونه.. ربما بالصراخ أو ببعض العقل و الحكمة.. حتى أن قرناءه كانوا يشعرون أنها أمه حقاً..

عجيب عقل المرأة هى من تصنع الرجل ثم تعلمه أن يكون متمردًا عليها و ما تلبث أن تعاود فتشكو مما صنعت بيدها.. لكل أم هذا الشعور.. الخوف على ابنها تشعر حين يتزوج أنه قد انفلت منها بعيدًا.. وأن تلك المرأة الجديدة في حياته قد اختطفت ابنها لذلك دومًا هناك بينها و بين زوجة ابنها شئ ما فى صدرها لا تفصح به إلا إن أرادت.. هذا ما كان فى عقل سهام وقتها.. و لكنها لم تكن تستطيع أن تجهر بذلك.. من حقه أن يعيش حياته.. ربما كان هو الوحيد فى حياتها من الأهل إلا أنها كانت تعرف أنها سُنة الحياة..

غضبت بشدة عندما صرّح فى هذيانه بما قاله زوج عمته و شعرت بأن عليها أن تحميه من ذلك الرجل.. و ربما لا تحتاج لحمايته منه بل تساعده لينال من أحب.. حيرتها فى الأمر لم تطل كثيرًا.. ففى الصباح صارحته بما

سمعت منه.. أنكر قليلاً ثم

- نعم قال ذلك..

- لم لم تخبرنى حينها؟

- الأمر أتفه من أن أخبرك بـه.. لم أعد ذلك الولد الصغير الذى يأتيك باكيًا لتدافعى عنه..

- أتفه.. ما أكذبك.. تظل واقفًا فى المطر منتظرًا أن تراها و تصاب بتلك الحمى.. و تقول لى الأمر أتفه.. اسمع.. فى المرة القادمة أنا آتية معك..

- و لكن..

- انتهى الأمر..

قالتها باسمة.. و لكن لم تخلُ بسمتها من القلق.. ربما على نفسها او عليه لم يبدُ الأمر بالنسبة لأحمد.. و لكنه أدرك ذلك القلق فى عينها...

الفصل الثامن

- بل نحن أنفع لك..
- هل تظن ذلك؟
- طبعًا
- و لم؟
- نحن جماعة تستطيع أن تمنحك ما تشاء.. غير أنك ستفوز معنا بالدنيا و الآخرة..
- و هل اشتريتم صكوك الغفران كلها..؟؟!!
- هذا قول لا يجوز..
- و هل فعلكم يجوز؟!
- طبعًا.. نحن نسير على نهج النبى صلى الله عليه وسلم و خطاه.. و على نهج الإمام حسن البنا
- وماذا عن التنظيم العسكرى .. أو الخاص الذى تجعلون منه حاميًا؟ و العرض الذى كان فى جامعة الأزهر؟.. قل لى و اصدقنى.. من أين تأتون بتلك الأموال التى لا تنتهى بالرغم من التضييق عليكم من الحكومة؟

- الأخوة يتاجرون.. و لكل عضو فى الجماعة مساهمة بسيطة

- هكذا إذا لن ننتهى من الكذب.. اسمع لن أكون معكم إلا أن أقابل واحدًا من مكتب الإرشاد.. و معه يكون الاتفاق

ربما تلك هى المرة الثالثة التى يجرى فيها الاخ صبرى عبد الغفور هذا الحوار.. ربما بدأ الأمر بالزواج و المال و غيره من تلك المغريات.. لا تكون عادة تلك المغريات للجميع و لكن لمن يستحق أن يكون هذا بابًا له.. لكل شخص مفتاح.. ربما كان فقيرًا و لكنه يحتاج إلى الدعم الدينى أو الأخوى فربما كان منبوذًا بين الناس.. فما أن يجد له أهلًا و عائلة تحميه فماذا يريد أكثر من ذلك؟...أو بعض المال القليل أو العون من حاجيات البيت.. إلى أن يصل الأمر لمن هو أكبر بالنسبة للحاجة و النفع فيكون المال مفتاحًا له خاصة إن كان شابًا مثل أحمد طلعت يحتاج للمال أكثر من أى شئ آخر.. ربما يكون السلطان.. أو القيادة هى مفتاح الشخصية.. مهمش أو لا شئ فيجد نفسه قائدًا لمجموعة تطيعه فى أى شئ.. ربما يكون ذلك كافيًا ليرضى غروره.. هذا مالا يستطيع احدٌ أن يدفعهِ أو يمنعه.. فحياتنا أصبحت مليئة بمثل هؤلاء.. و هكذا ترسخت الجماعة منذ نشأتها.. فهى حالة اجتماعية أكثر من كونها تنظيمًا سياسيًا...

* * *

- هل هذه شقة أحمد طلعت؟

- نعم

أجابت سهام مبتسمة.. يبدو عليها نظرة الإعجاب عرفت من تكون

- أنا..

- جليلة.. ابنة عمته.. أليس كذلك

أومأت برأسها و قد بدى عليها نظرة الدهشة و التعجب و التساؤل.. من ترى تكون تلك الشابة الجميلة التي تكبر أحمد بأعوام ربما و تعيش معه في المنزل.. هذا منزل والده و خالها.. تلك هي المرة الأولى حقًا التي تذهب إليه و لكن.. من تلك المرأة.. لا يبدو عليها أنها الخادمة.. لا أبدًا.. و للمرة الأولى تكتشف حس الغيرة في نفسها.. ألمحت ذلك سهام بالطبع.. لذلك لم تتركها كثيرًا في تساؤلها.. قالت لها مبتسمة

- انا سهام.. ابنة خالته

لم يشفِ الأمر بعد نظرة التساؤل التي في عينها بل زادتها اشتعالا و بريقًا.. تلك النظرة أثارت عند سهام ضحكًا شديدًا..

- أنا لا اعرف كيف لم يخبرك عني

- في الحقيقة كانت لقاءاتنا محدودة جدًا

- نعم.. و أظنها ستقل

- ماذا؟!

- لاشئ.. فقط أمزح معك.. لن اتركك فى حيرتك أكثر من ذلك..

بعد ما ماتت أمي و أنا فى الخامسة عشر من عمرى جئت إلى هنا لأكون مع خالتى رحمها الله.. و سرعان ما توفيت و أنا فى سن السابعة عشر.. كان احمد فى السابعة من عمره.. احمد هذا الذى رأيته هو ابنى.. انا من ربيته.. كيف لم يخبرك عنى حتى الآن؟!.. ربما لم تسنح له الفرصة...

بدأ القلق ينقشع بعيدًا عن عينها و بدأ ثغرها فى الابتسام.. و أنفاسها المتسارعة تهدأ.. فسألت : أين هو؟

- الساعة الثانية و النصف الآن.. سيأتى فى تمام الثالثة.. سأحضر الغداء.. لا مجال للفرار ستأكلين معنا..

- و لكن..

- لا.. لا اعتذار انتهى الأمر.. هل تحبين الملوخية؟

- نعم..

- حسنا.. ستأكلين اليوم ملوخية لن تتذوقى مثلها فى العالم.. هنا فقط عندى

* * *

اعتاد أن يحضر تلك الندوات الثقافية التى تعد فى أماكن عدة فى الإسكندرية.. هذا كان دأبه فى ذلك اليوم أصرت سهام أن تكون معه.. تحتاج إلى بعض التغيير الذى تفتقده كثيرًا فى حياتها.. كان الحديث

يومها عن فلسفة الحياة.. لم تكن بالجهل الذى لا تعى ما يقال و لم تكن بالقدر الذى يفهم كل شئ على نحو صحيح.. الأمر كان غريبًا بالنسبة لها حتى قام أحدهم ليتحدث عن روايته حديثة الصدور.. كان يتحدث عن امرأة تزوجت أكثر من مرة.. و تعدد علاقاتها بشكل غريب.. كان هذا آخر ما سمعته من الندوة.. أخذتها تلك الكلمات إلى ذكرى أمها التى لم تفارقها يومًا.. بكت فى تلك الندوة بشكل غريب و هيسترى.. حتى علا صوتها و التفت الناس إليها.. كان لابد لأحمد أن يدرك الأمر فأخذها و انصرفا ليمشيا قليلاً على الكورنيش.. و لكن سرعان ما طلبت منه أن تعود للبيت.. و ما أن وصلا للبيت حتى سألها أحمد بشكل ملح جدًا..

- لم تخبرينى من قبل عن خالتى.. لماذا؟

على الرغم من إلحاحه كانت تريد أن تكون وحيدة فى غرفتها.. لم تجبه طبعًا.. كان السؤال قاسيًا بالنسبة لها.. لا يعرف إن داهمها الصرع ذلك اليوم أم لا.. و لكن وجهها كان شديد الاسوداد ذلك اليوم من الغضب...

* * *

كانت فرصة سانحة لسهام كى تسألها عن كل ما تريد أن تعرفه و لكن بشكل خبيث بعض الشئ.. لم تفهم جليلة هذا الخبث الذى كانت تتصنعه سهام كانت تجيب بكل صراحة دون خجل فى غير سؤال واحد عن الزواج.. قالت و عينها مُلئت بالكذب الذى أدركته سهام

- أنا لا أهتم بأمور الزواج تلك.. فالزواج شركة لابد أن يحسب لها كل شئ

- عندنا هنا لا نحسب لشئ.. فلو حسبت لشئ لما تزوج أحد

- و أنت لما لم تتزوجي حتى الآن..

سؤال صادم لسهام هذه المرة.. و بدت أثر تلك الصدمة على وجهها.. و لكن سرعان ما خبأتها بابتسامة صفراء و قالت :

- و من أين عرفت أنني غير متزوجة؟

- ليس في يديك خاتم أو دبلة

- آه.. أنا مثلك لا أهتم بأمور الزواج تلك.. عن إذنك سأرقب الطعام

كان هروبها إلى المطبخ سريعًا هو الحل للتملّص من تساؤلات جليلة التي عاودت من جديد.. لفتت نظرها نحو الدبلة.. لم لا تشترى دبلة حتى تتخلص من تسلط من حولها.. و لكن ماذا تفعل مع أهل المنطقة فهم يعرفون عنها كل شئ؟!...

الفصل التاسع

- هاهو قد جاء..

قالت ذلك سهام من قبل حتى أن يمد أحمد يده ليخرج المفتاح من جيبه.. شعورها به كان مذهلاً.. ينم عن مدى ذكائها و مدى ارتباطها به.. فتح الباب ليجد جليلة أمامه تجلس على كرسى وضع أمام المنضدة الدائرية التى توسطت الصالة.. كان أمرًا مفاجئًا لدرجة أنه نسى أن يغلق الباب بعد ما دخل أو حتى ينزع المفتاح منه.. قالت سهام :

- ما رأيك فى تلك المفاجئة.. سنأكل سويًا اليوم..

ثم دنت على أذنه قائلة بابتسام..

- ملوخية..

جلس على الكرسى المقابل لها.. ثم سكت طويلاً.. ابتسمت له قائلة

- ألن تسألنى؟

- عم؟

- كيف عرفت البيت؟

- آه.. فعلاً كيف عرفت؟

- من هذا

أخرجت من حقيبتها جوابًا قد كتب عليه اسم والده و العنوان و مختوم بختم البريد الأمريكى.. ثم بختم آخر يعود لصاحبه.. ثم قالت

- هذا خطاب أرسلته أمى منذ امد و لكنه كما ترى قد رد اليها.. احتفظت به منذ ذلك اليوم الذى رد فيه..

ثم نظرت إليه.. و ذابت ملا مح وجهها فى الابتسام.. ثم قالت

- لما لم تأتِ الأسبوع الماضى كما وعدت؟

- أنا.. لست...

- رأيتك من الشرفة يومها.. فى المطر.. ناديتك و لكن لم تسمعنى

- أنا لا.. أبدًا.. لم أكن أنا

جاءت سهام مسرعة من المطبخ تحمل إناء الطعام.. ثم قالت بجدية شديدة

- بل كان هو..

- سهام!!

- اسكت إنت.. يجب أن تعرف.. كان هو يا جليلة جاءنى ذلك اليوم و قد غرقت ملابسه من المطر و أصابته حمى أرقدته أيامًا..

ثم دنت منها و قالت بصوت منخفض سمعه أحمد

- هذا هو اليوم الأول الذى يخرج فيه و يعود لعمله

ارتسمت على وجه جليلة ابتسامة.. ليست ابتسامة فرحة أكثر منها ابتسامة خجل.. كانت تستشعر أن في الأمر شئ.. لذلك سألته

- لم؟

لم يجب بل نحى وجهه عنها.. و كذلك سهام.. كانت تنتظر منه ردة فعل قوية و لكنه خيب أملها.. لم يقدر أن يصارحها.. و لكنها أدركت الأمر بذكاء حاد.. تراجعت بظهرها على الكرسى و قالت

- أبى.. أليس كذلك؟

لم يجب فى المرة الأولى و لكنها أعادت السؤال بنبرة صوت حادة أخرى.. فأومأ برأسه أى نعم.. ثم قالت

- كنت أعرف.. منذ أن تبدل وجهك فى المرة الأخيرة

كانت تنظر سهام إليها و هى تحدثه بإعجاب شديد لتلك القوة.. لم تعهد ذلك من امرأة شرقية.. ربما سر هذا الإعجاب أنها تحتاج إلى قوة مثلها لتواجه بها الناس من حولها ممن يلزمونها بحياة تكرهها.. لم تستطع أن تخفى هذا الإعجاب فقالت

- كان عليه أن يحبك فعلاً..

تبدلت تلك الجرأة إلى خجل ثم احمرار فى الوجنة عند جليلة.. على الرغم من شعورها بالرضى عن نفسها.. إلا أنها شعرت بالخجل بشكل كبير

لم تعهده من قبل...

* * *

- أنت عدو قح لشرع الله

- ربما كان عليك أن تدرك أن اسمى أحمد يا سوسته

- أتسخر من العلماء

- و هل صرت من العلماء.. من منحك خاتم الكفر يا حسين؟ حتى تحكم على الناس أيهم المؤمن.. و متى؟.. ألا زلت ترسب فى كليتك حتى الآن؟

- لم أعد أحتاجها..

- طبعًا.. لديك الآن فيلة.. و سيارة من نوع عالى أليست بى أم؟.. و متزوج من أربعة.. منهن قاصرة.. قاصرة لم تتجاوز السادسة عشرة.. أيها الحيوان

- لن تكف عن السباب.. و أستطيع الرد عليك.. و لكن لن أضيع وقتى أكثر معك.. اتفقنا مع من أرسلك على تجارة و نريدك أن تسلمها.. و ما تلك التجارة.. ما نوع البضاعة..

- ألا تعرف؟..

- لا حقًا لا أعرف.. كل ما طلبته منى أن أرسل إليك بعض الكفرة كما تقول.. أرسلت إليك إبراهيم فؤاد.. و هذا كل شئ

- سلاح..

- ماذا؟

- هل صدمت..؟.. بعض السلاح للأخوة المجاهدين فى فلسطين..

- و أى نوع من السلاح إذًا

- بعض الصواريخ.. و القنابل اليدوية الأمريكية

- كنت أعرف أن هناك شيئًا قذرًا فيما بينكم.. و لكن لم أتخيل يومًا أن يكون الأمر هكذا.. أقسم بالله لو عرفت عنكم شئ سأبلغ عنكم فى الحال

- ها.. لا تستطيع.. و إن فعلت سيكون بلاغًا كيديًا لن يجدوا شيئًا.. أحذرك أن تفعل و إلا..

- و إلا ماذا؟

- و إلا...

قال ذلك و بدى فى عينيه الشر جليًا.. هو يكره أحمد.. لذلك يحاول أن يجره لأمر كهذا.. حتى يجعله فى خطر.. فتسنح له الفرصة للانتقام...

* * *

- إلى متى ستعاقبنى؟

- أعاقبك

- نعم تعاقبنى لأنى أمريكية.. ليس هذا ذنبى.. أنت و أمى من أخذنا إلى هناك.. لا يا أبى لست الفتاة المنحلة التى تظنها.. و لم أتأثر

بأخلاق الانحلال.. و أنت تعرف ذلك

- نعم يا حبيبتي.. و لكنى لا أعرف ما سر تلك الثورة
- بل تعرف يا أبى..
- ابن خالك..
- نعم أحمد.. ما الذى جعلك تقول له ذلك؟
- أنا خائف عليك.. هذا شاب فقير الحال.. و لاحظت أنك معجبة به..
- آه.. أنت إذًا من تأثر بأمريكا يا أبى.. تفكر مثلهم..
- أنتِ لا تعرفين شيئًا عن مصر يا جليلة.. و لكنى سأتأثر بأمريكا و سأكون ديموقراطيًا.. ادعيه فى الأسبوع القادم ليكون ضيفنا.. لنرى أينا المحق إذًا.. كيف لى أن أدعه يستغلك..

نظرت إليه نظرة غريبة للمرة الأولى يراها منها.. كانت خليطًا بين العتاب و السقوط من النظر.. لطالما تأثر بالحلم الأمريكى.. و لكن دومًا ما كان يجعل هناك حدًا و رقيبًا على فتياته.. يخشى عليهن من التأمرك.. قد فعل إلى حد بعيد و حفظ أهله و بناته.. أما الآن فيهدم ما بناه ليحيي من جديد فكرة الشرقى.. تاركًا وراء ظهره كل ما عهده فى بلاد الغرب.. بأحياء فكرة الطمع و الخوف منه.. فكل طماع يخاف أن يطمع فيه الناس.. كما أن كل خائن يسئ الظن...

الفصل العاشر

الساعة العاشرة فى الشتاء.. لم يكن هناك ضيفٌ منتظرٌ.. و لم تكن حالة الطقس تسمح بأى زيارة فى الخارج.. على باب الشقة القديم يبدو من خلف الزجاج أحدٌ يقف.. مترددًا فى أن يضرب الجرس.. وقف أحمد قليلًا لينظر هل هناكِ فعلًا زائرٌ أم أن هذا ظلًا فقط.. قرر ألا يفتح الباب إلا لو سمع الجرس.. و فجأة سمع الجرس يرن بشكل مستمر و يخبط الشبح الباب بقدمه بشكل عدوانى جدًا.. فتح الباب مسرعًا.. ليجد الأستاذ ماهر شاهرًا سكينة عليه يهم ليضربه.. رأت سهام ذلك المشهد.. أسرعت على الباب تمسك بيد ماهر و تصرخ فى وجهه

- ابتعد.. ابتعد..

ثم بدأ على وجهها التغير و أصابتها نوبة الصرع بشكل قوى و مفاجئ هذه المرة.. سريعًا نسى ماهر ما كان يفعله و نظر إليها و هى تسقط على الأرض متشنجة بشكل غريب.. ثم أخذت الدموع تسيل من عينيه.. ألقى السكينة على الأرض.. و جرى على السلم ليصعد شقته.. أغلق أحمد الباب و بدأ يرفع رأسها عن الأرض و يضع فى فمها شيئًا يمنعها من جرح نفسها أو

بلع لسانها..

هدأت النوبة ثم ألقت برأسها في حجره.. و يمسح عن وجهها العرق و السائل الذى يخرج من فمها.. ثم قال لها برفق قد مشى.. لا تخافى.. ثم راحت فى نوم عميق.. لم تفق منه إلا فى اليوم التالى لتجد نفسها نائمة فى سريرها كأن شيئًا لم يكن.. قامت من سريرها تبحث عن أحمد فى الشقه و لكنه كان قد خرج إلى العمل مبكرًا.. تأخرت فى النوم كثيرًا.. ثم رفعت سماعة التليفون لتتصل بالمصلحة لتعتذر عن غيابها.. ردت عليها زميلتها فى العمل قائلة :

- أخوك جاء اليوم و أخذ لك الأجازة..

شعرت وقتها بارتياح شديد.. ثم أخذت تفكر من جديد.. ماذا لو كانت ذلك اليوم وحدها فى البيت؟.. هل كان حقًا يريد ماهر أن يقتلها؟.. إلى متى ستعانى من نظرات من حولها و كلماتهم السخيفة التى تتلقاها كل يوم؟.. و إلى متى سيكون من حق كل جيرانها التدخل فى حياتها إلى تلك الدرجة؟.. متى ستنتهى نظرات الطمع و الشهوة التى تملأ أعين الرجال لمجرد أن يعرفوا أنها آنسة؟.. تساؤلاتها تزداد و يحتدم الأمر إلى حيث لا مفر منه.. كيف ستأمن لماهر هذا بعد اليوم؟.. ربما قد اختل عقله فصار لا يميز.. هل صار مجنونًا إلى تلك الدرجة؟.. و صارت تخشى حتى أن تنظر إليه و لو بطرف عينها بعد فعلته تلك.. قابلها فى اليوم التالى على السلم.. لم تنظر

إليه.. تجاهلته.. رغم أنه كان يحاول أن يحدثها.. أو يعتذر.. ربما فقد صوابه للحظات.. هو حقاً لا يريد أن يؤذيها.. و لكن كان هذا بدافع الحب أو بدافع تلك الحبوب التى لجأ إليها لتعينه لينساها.. ازداد حبه لها عندما شاهد مشهد أمس و هى تصرع.. كذلك هى كانت تخشى أن يفصح عن ما رآه بالأمس فتصير حديثًا من جديد.. ما بين متهم لها و بين ما عانته من الدجل و دعوى أنها تعانى من مس الشيطان.. لا تنتهى تلك الترهات من حولها طوال اليوم..

بعد هذا التفكير العميق الذى داهم عقلها و تلك التخوفات و جدت حلاً للأمر بمنطق عملى.. و لكن سرعان ما خافت من تلك الفكرة و أعرضت عنها...

* * *

- منذ متى و أمريكا تهتم بديموقراطية الشرق..؟ هل فقدت صوابك حتى تتورط فى ذلك!!
- لن تفهم ما أريده..
- و لم لن أفهم أيها العبقرى؟
- أمريكا أدركت أخيرًا أن الحل فى الشرق هى الديموقراطية الحقيقية..
- هل تصدق ما تقوله.. عن أى ديموقراطية تتحدث.. أمريكا نفسها

لا تتمتع بالديموقراطيــة التــى تــدعيها.. الأمــر فقــط علــى نحــو مغــاير.. ديكتاتورية رأس المال هى القائدة عندهم.. لا يبالى أحدهم أن يخلع ملابـسه فى الشارع مقابل بعض الدولارات.. أهذه هى الحريــة.. ألم تكـن تلـك هــى قناعتك يا مستر إبراهيم فؤاد أيها الصحافى العظيم..

- لم أكن..

- لم تكن مـاذا.. فـى الأمـر شـئ.. أقـسم أن فـى الأمـر شـئ.. منـذ انضمامك لحقوق الإنسان و أنت تحاول أن تبرر ما تقوم به.. و لكنك تفـشل فى كذبك أمامى.. منذ متى و علاقة أمريكا بالإخوان وطيدة إلى هـذا الحـد.. أنت تبيع بلدك يا إبراهيم.. و ستندم.. أقسم لك إنك سـتندم.. أمـا أنـا فلـن أصمت على الأمر أكثر من ذلك..

- إلى متى ستتهمنى.. ألا تنظر للناس و حالهم الذى أضحى مذريًا.. ألا ترى ماذا صنع الفقر فينا.. ألا ترى.. ألا تشم و رائحة تحلـل هـذا البلـد بلغت مداها

- ليس بهذا.. نعم نريد ثورة.. نريد أن ننهى عهـد الاسـتبداد.. و لكن ليس هذا هو السبيل.. نستعين بعدو.. أهذا هو الحل عندك؟

- نحن نتكاتف لنحمى أنفسنا.. أليس هذا ما يسمونه التوافق؟

- توافق!!.. الكل يبحث عن بغيته.. أنت تعرف ذلك.. ما أن يصل

أحدكم إلى الكرسى حتى يفتك بكل من خالفه.. حقاً أن تريد الإصلاح و لكن باسمك أنت.. لكن لا أحد يريد لتلك البلد أن تقوم حقاً.. و لاَ أحد يفكر في الناس حقاً

- إلى متى ستلقى بتلك الاتهامات؟.. أنا أعرض نفسى للخطر من أجل تلك البلد..

- بالسلاح.. ماذا سيصنع السلاح.. و من تعين بالسلاح يا سيد إبراهيم.. قتله بالفطرة! !.. أنت تمزق بلدك بغبائك..

- هذا ما حدث.. ليس أمامى الآن أن أتراجع.. و أنا أحذرك يا أحمد أن شعر أحدهم بما تنوى أن تفعله فلن يترددوا فى الفتك بك

إنتهى هذا الحوار إلى تهديد و وعيد.. و لا شئ آخر.. لم يغاير لشئ فى واقع الأمر.. لا جدوى من الشكوى.. الأمر أكبر من أحمد و من مثله ليفضح الأمر.. هناك من يدعم ذلك.. و هل أجهزة الدولة غائبة مثلًا عن هذا.. بالطبع لا.. يمكنهم الوصول لأى شئ أرادوه.. كما قال هناك سر مبهم سيتكشف يومًا.. و لا يعرف أن كان سيدركه أم لا.. الصمت عن ذلك هو عين الآمان.. فالخوض فيه لن يجدى من شخص مثله...

* * *

تلك المرة كان اللقاء مغايرًا.. جاءت بهدوء لم يلتفت إليها حينما جلست إلى جواره.. فقد كان مشغولاً بالجريدة التى أمامه.. يقرأ فيها حتى

أن تلك الجريدة شغلته عن البحر و أمواجه.. شغفه فى تلك الحياة.. لم تكن تريد أن تقاطع تلك الخلوة فقط أرادت أن تشاركه إياها بهدوء.. لم ترد أن تنتظره فى البيت مع سهام.. عرفت منها فقط أين يكون مجلسه و لم تتردد لأن تكون معه.. لم يتخيل أن تأتى له أبدًا فى ذلك المكان.. عندما أطال الانشغال عنها أمسكت بالوردة التى كانت بيدها لتمسح بها على يده المسكة بالجريدة.. ألتفت إليها و لكنه لم يتوقع أن تكون هى.. و عندما أدرك ابتسم ابتسامة بسيطة.. لم ينطق بشئ.. و لم يسأل حتى كيف عرفت أين يكون.. عاود من جديد ليمسك الجريدة ثم قال

- انظرى ما الذى كتب هنا.. افتتاح مشروع الشباب السكنى فى السادس من أكتوبر..

نظر إليها مبتسمًا.. ثم مال عليها قائلًا بصوت خافت

- تلك هى المرة السادسة التى يفتتح فيها ذلك المشروع..

ضحكت بصوت عال بعض الشئ.. و كأنه أسرّ لها بشئ مضحك حقًا.. فالأمر بالنسبة إليها جديدٌ و حقًا يثير السخرية.. بعد تلك اللحظة فاجأته بكلمات صادمة..

- أحبك..

- ماذا؟

- أقولها بالانجليزية إذًا.. بل لا.. لا عليك.. آسفة على إزعاجك.. سأذهب

قامت مسرعة.. كانت الكلمة صادمة إلى درجة أنه لم يلحق بها كما في الأفلام العربية.. و لكنه أمسك بالجريدة يخبئ رأسه.. لم يتوقع أن يسمع منها ذلك لطالما أطمأن أن هذا الحب لن يتعداه.. الأمر أعقد من أن تقول كلمات الحب.. فكلمات الحب تبقي كلمات.. أما في مصر لا يعد الأمر بتلك السهولة.. فترجمتنا للحب تختلف.. نؤمن بما كتبه القباني لا ينتهي الأمر بالكلمات.. فيكون لا شئ معك سوى كلمات.. و لو كان الحب بالكلمات لصرنا أكثر الشعوب محبة في العالم.. أما الحقيقة أننا أكثر الشعوب حبوا في العالم.. ندعي ما ليس فينا.. ما أكثر من إشعار الحب عندنا.. و ما أسرع من قتلنا له.. نقتله في بكورته نوئده قبل أن نفصح به.. فيعلم أن فلانًا يحب و فلانه تحب.. فيصير الأمر محذورًا و يصير صاحبه مخذولًا..

لا شك أن هذا الأمر أحيا الشاعر الذى يقبع في صدره الشاعر الذى قتله منذ عقود فصار قلمه جافًا لا يكتب و محى ماكتبه من قبل زمن لا يعرف كيف تولد القصائد.. زمن أصبحت الولادة القيصرية هي سمته حتى في المشاعر فأضحى كل شئ اصطناعي حتى مولد الإنسان...

الفصل الحادى عشر

لم يمنعه شجونه أن يكتب إليها فأرسل لها قصيدته الأخيرة جيدة بالرغم من أنها بدائية لتصل للاحتراف .. لم يكتب بعدها و لن يكتب.. لن يسمح له القدر بأن يكتب بعد ذلك شئ..

كتب.. إلى جليلة قلبى

ما كنت أعرف أن قدرى كتب أن أحب يومًا و ما كنت أعرف أن هذا الضعف عندى.. يكمن فى صدرى منذ ولدت و لم يثر بركانه إلا حين رأيتك لا أعرف أن كنت قد نسيت الشعر العربى و لكن هذه طريقتى..

أحاول أن أكتب إليك منذ شهر

منذ المرة الأولى

مرآة وجهك لا تغادر مقلتى

فالحب عندى قتل

داعبت بالورد يدى

و جائتنى باسمة الثغر

لكن عقلى كان مهترئ

و قلبى صحراء قفر

و عينى فى الجريدة سرحى

ما بين كذبها.. و فكر الحر

اعذريني لن أقول إني أحبك

لن أبوح بها

و ما أقبحه من عذر

فالحب عندنا شيطان

اغترار...

و غير مسموح لمثلي أن يغر

* * *

لم تكن القصيدة كاملة حين وصلتني لذلك فيها بعض الاجتزاء.. ربما أراد أن يحتفظ من أوصلني القصة ببعض من الخصوصية فيها و لكن على كل حال هذه كانت رسالته إليها أو ما وصلني منها...

* * *

على شاطئ البحر تمشي سهام مبللة قدميها و إلى جوارها ربيبها كانت ترفع العباءة عن قدميها قليلاً فقط خشية أن يبللها الماء.. بينما تنظر إلى موجات البحر الهادئة و هي تداعب قدميها برفق.. أحد أوباش البشر ممن يفسدون حياتهم و يتضرعون لإفساد حياة من حولهم.. حاول أن يغازلها بشكل مسرف في الوقاحة.. فقط نظرت إليه و قام أحمد بلكمه بقوة أسقطته ارضا.. قام مسرعا يهرب مما لاقاه كالهر حين يسرق قطعة من اللحم..

كعادتها لم تلق بالاً للأمر استمرت تمشي على الشاطئ و كأن شيئًا لم

يحدث.. سعيدة بأن صار هناك من يحميها.. كان ذلك يوما أقصى ما تمنت في حياتها نظرت إلى أحمد ثم ابتسمت و قالت :

- تذكر عمر الذى صفعته فاسقط له ضرسًا..

- بالطبع.. ذلك الذى كان يعمل عند عبد الله البقال..

- ضحكنا يومها كثيرًا..

- كدت أن تقضى عليه بتلك الضربة.. يالك من امرأة..

سكت قليلا ثم علت ضحكاته و قال :

- أذكر شكله حينما سقط أرضًا.. يصرخ.. و تلك النظرة التى كاد أن يموت فيها عندما وجد ضرسه فى يده..

- لا أعرف من أين جائتنى تلك القوة التى ضربته بها.. فقط كنت قد مللت من تعرضه لى.. كان وقحًا إلى درجة لم أتحملها فى تلك المرة

- من يومها يخاف أن يدخل هذا الشارع إلا مرتابًا

- مسكين..

بعد فترة من الصمت لحقت تلك الكلمة.. أطالت النظر فيها إلى قرص الشمس و هو يغرق فى الماء مخلفًا لون الشفق

- لا تسألنى لماذا سأقول لك ذلك.. أنا لا أعرف كل ما فى الأمر أن على أن أخبرك.. لا تكرهنى مهما حدث و لا تسئ فى الظن..

كانت عبارة غريبة لم يرد أن يسأل عن فحواها و لكنه اكتفى بهزهزة رأسه ثم عاود ينظر للبحر ثانية.. لم يكن يريد أن يسمح لشئ أن يقاطع ذلك المشهد الساحر الذى يراه.. أو صورة جليلة التى شكلتها المياه و خصته بالنظر إليها... أما سهام فلم تزد على تلك الكلمات شيئًا.. و عاودت لشجونها مرة أخرى

* * *

ذكرى ذلك اليوم لم يبعد عن خاطره شارحًا كيف يعيش هؤلاء من دعاة الحضارة فى العهد الذى نعيشه.. يذكر يوم دعوة إبراهيم فؤاد له على الغداء.. رحب والده بذلك فقد كان يتطلع للقاء أحمد.. كثيرًا ما يحدثه ابنه عنه و عن اعتراضه على الكثير من أفكار معسكر اليسار و على الرغم من ذلك يجد فيه ما يرضى طموحه من فكر عادل.. عقل غريب لا يرضى إلا بما يقتنع.. غريب حقًا لطالما أراد أن يرى مثل هذا فيعرض عليه فكره ليكون الحوار مثمرًا.. قَبل أحمد الدعوة على تشوق للقاء هذا الكاتب الكبير الذى يقرأ له كل ما يكتبه قد يختلف معه أو يتفق و لكنه يحب أن يقرأ له على كل حال..

جلس الكاتب الكبير فؤاد نظمى على كرسى فى زاوية منضدة الطعام.. سحب الفوطة التى وضعت أمامه دون أن يلتفت إلى أحد.. ثم التفت الى أحمد مرحبًا به.. ردَّ عليه التحية بتهذب ثم بدأ فى مدحه قليلًا و عرض رأيه عن مقاله الأخير الذى تطرق إلى عهد عبد الناصر و عهد الثورة بشكل عام.. و

جعل منه عصرًا للفساد دون أن يذكر ما حدث فيه من خير.. ربما اتفق معه أحمد بالنسبة للوجهة الاقتصادية بعض الشئ و لكنه عرض ما كان يراه بشكل منمق و مهذب أعجب به الكاتب الكبير على الرغم من الغرور الذى كان يتمتع به..

- ما الذى دعاك لقول إن الجمهورية الأولى لم تقم بعد فى مصر؟ اسمح لى بهذا السؤال

ابتسم الكاتب ابتسامة لم تكن بريئة من بعض الخبث ثم سكت هنيهة و قال

- هذا ليس رأى.. بل رأى كل أساتذة السياسة و فلسفة الحكم

- و لكن اعذرنى.. هذا حكم قاس بعض الشئ

نظر إليه بدهشة ثم أخذ بعض رشفات من الشوربة التى وضعت أمامه ثم قال

- سأوضح لك الأمر.. الجمهورية كما تعلم هو نظام يقوم فى الأصل على أنظمة حكم مختلفة.. حقًا لم تكن الديموقراطية هى أصلها و لكن هى الآن العمود الفقرى بالنسبة للنظام الجمهورى.. أى ديموقراطية إذًا التى تجعل لرئيس الدولة 99.9 فى المئة من الأصوات.. تلك هى الكوميديا السوداء كما يقولون..

- أنا لم أخالفك الرأى و لكن لا يجعل ذلك من حكم الثورة شئ آخر

- من حقك أن تعترض طبعًا

قال ذلك زميله إبراهيم بشكل فيه بعض الفخر.. لم يتحدث إلا بتلك العبارة.. فقط كان يكتفى بالاستماع.. و الاستمتاع بـه.. أردف السيد فؤاد قائلًا

- إن كنت تريد اسما لنظام الحكم في مصر.. أنتم أدرى بـه الأوليجاركية.. أليست هي سيطرة الساسة و أصحاب رؤوس الأموال.. هذا هو ما نراه.. الأمر تبدل الآن بعض الشئ فأصبحت أوليجاركية حديثة.. في السابق كانت طرازًا أقدم بعض الشئ...

- هل تظن أن الديموقراطية هي أفضل أنظمة الحكم حقاً أستاذي؟

- أرى كما تعلم أن النموذج الأمريكي الديموقراطي هو الأفضل بالطبع

- هل تظن أن هنا نقطة الخلاف؟

- بالطبع لا.. ربما لا نتفق في ذلك و لكن في النهاية هذا ما أراه.. سأنتظركم في المكتب لشرب الشاي

قام بوقار شديد و انصرف إلى مكتبه...

الفصل الثانى عشر

- هل أزعجته فى شئ؟
- لا أبدًا تلك هى عادته.. لا يأكل كثيرًا.. تعرف داء المعدة
- كل ما أردت أن أقول.. أن هناك الكثير لعنوا النظام الديموقراطى
- لا عليك.. لم لا تأكل؟..
- حسنا.. الطعام لذيذ حقًا..
- أنا متعجب حقًا من أنك تتقن برتوكول الطعام.. الشوكة و السكين.. جميل
- ماذا تقصد من قولك هذا؟
- لا أبدًا.. حقًا لا تغضب منى فقط أردت أن أبدى إعجابى بذلك.. رائع
- ها.. شكرًا.. لنشرب الشاى إذًا

نقر إبراهيم على الباب برفق.. سمع أحمد حينها صوت موسيقى كلاسيكة طرب لها.. نظر إليه الأستاذ فؤاد و قال

- أهلًا بك فى قلعتى.. هنا أعيش بين تلك الكتب..

مكتبة رائعة مليئة بالكتب.. فى الحقيقة صعبة الحصر حتى.. قاطع فؤاد نظرته إلى الكتب قائلًا..

- بالمناسبة.. عن كوميديا الديموقراطية.. ما رأيك فى أسطورة العمال و الفلاحين فى مجلس الشعب.. و ما رأيك فى المجلس الغريب أبيض شعر الرأس المسمى بالشورى.. أليست هذه كوميديا؟!

- ربما كان ذلك يمثل بعض العدالة الاجتماعية.. أو تعويضًا للفلاحين و الكادحين من الشعب حينها..

- ها.. مضحك جدًا ما تقوله.. اعذرنى لم أرد السخرية.. و لكن الحقيقة هى أن السبب هى الولاء.. أرادوا اصطناع هزلى للديموقراطية و استغلوا البسطاء فى ذلك.. صدقنى الأمر كان مفجعًا حقًا..

- ولكن فى نهاية الأمر.. كنا دولة صاعدة.. لا ينكر أحد أن اقتصادنا كان قويًا.. كم مصنعًا كان فى مصر.. كلمة صنع فى مصر كانت علمًا فى كل دول العالم..

- و أين ذلك الآن؟

- لا ذنب للثورة فى ذلك أيضًا..

طال الحديث كثيرًا.. و لكنه كان كما توقع مثمرًا حقًا.. و لكن بقى لكل منهم وجهته التى هو موليها.. الاختلاف على شخص عبد الناصر غريب

حقاً.. ربما تحبه و تكون معجبًا بما صنع.. أو تكره ما صنع حتى تكرهـه.. و ليبقى الأمر جدلاً قائمًا.. في نهاية الأمر كـان للأمـر عيـوب كمـا كـان لـه مميزات.. الغريب أنك تتحـدث عـن وطـن حينهـا يحبـه أهلـها.. أمـا الآن فالأمر أصبح ولاء لفكر لا يهمه الوطن في شئ...

* * *

- لم لا تقرأ لنا بعض من شعرك.. هل تبخل به علينا؟

كان هذا هو طلب جليلة عندما عاود الوصل من جديـد مـع عمتـه.. فقـد حكت لأمها عما فعل أبوها مـن قبـل.. الأمـر الـذى حمـل زوج عمتـه علـى الاعتذار له في تلك المرة.. نعم كيدهن عظيم

- في الحقيقة أخجل.. ربما لا يرقى ليكون شعرًا حقيقيًا

قاطعته عمته و قالت :

- سنسمعه على كل حال

- حسنًا..

بعنوان الأوراق المبعثرة

حياتى حبر أهدرها على الأوراق

وقلبى نابض يبكى من الأشواق

يخدعنى عقلى يقحمنى

فى غمر أنشودة حزنى

يغضبنى حين يؤرقنى

حين يذكرنى يوم الفراق

لكنى دومًا أتبعه

و عن غير هدى معه أنساق

لا تغضبى منى لأنى بوهيميًا

هكذا اعتدت حياتى.. مهدرة

كرياح تنثر الأوراق

لا أهتم كثيرًا بالزمن

فزمانى دومًا أفاق

يدخلنى غرفًا مظلمة

يجعلنى دومًا طواق

طواق لصغرى لصبايا

طواق لنبض خفاق

يمطرنى حزنًا يأخذنى

أنا لا أهتم بزمانى

فزمانى دومًا يسرقنى

و تضيع حياتى على الورق

و يظل حبى يؤرقنى

و يضيق قلبى فى صدرى

وتظل حياتى دائرة

لا يوجد فيها إشفاق

و يظل الحبر منكب

كماء النهرالرقراق

كحياتى حبر أهدرها على الأوراق

- لم تحرم الناس من ذلك الشعر؟!.. اسمح لى اخطأت فى ذلك

قالت ذلك عمته ببعض من الود.. جعلت فى ذلك نبرة من الاعتذار.. فى الحقيقة لم يكن غاضبًا كما ظنوا.. فالأمر كان منطقيًا جدًا بالنسبة له.. شئ ما كان يخبره دومًا أن يبتعد لم يكن يريد أن يعانى ألمًا بلا أمل...

* * *

لم تعتد أن تظهر من جمالها شئ.. ربما آثرت كثيرًا اللون الأسود فى ثيابها و لم تحب أن تكثر من مساحيق التجميل كما تفعل النساء.. و لكن بالرغم من ذلك لم تنجُ من ألسنة ساكنى القهوة التى تقابل مسكنها.. تعودت ألا تهتم و لكن هذه المرة كان الأمر أقذر من أى مرة سابقة.. و كان ماهر شاهدًا عليه تجرأ أحد صبية العقل و مراهقى النفس.. واحد من أولائك المرضى بالوله الجنسى.. فى مرورها ليضربها على مؤخرتها بشكل غاية فى السفالة و انحطاط الخلق.. أضحى ذلك الأمر صارخًا فى شوارعنا.. قام ماهر

مسرعًا يلكم ذلك الحقير بشدة.. و لكن هذا التحـرش لم يكتـفِ بـذلك فقـد أسرف فى سبابه إليها و لماهر أيضًا و لأحمد بالرغم من غيبتـه.. لم تـستطع ان تصمد أكثر من ذلك انهمرت دمعاتها و جرت على الدرج وصولا لشقتها.. كانت منهارة إلى درجة كبيرة.. أصيب ماهر فى تلك المعركة بكدمات شديدة و بالرغم من ذلك حاول أن يطمئن عليها و لكنها لم تسمح بـذلك.. فـى ذلـك اليوم عاد أحمد متأخرًا.. كان ماهر ينتظره أمام الباب..

- مالك يا أستاذ ماهر.. ما تلك الكدمات التى فى وجهك؟

كان ماهر يتألم و يضع بعض الثلج على كدماته حتى تهدأ..

- حدث اليوم أمرٌ سيئٌ جدًا.. أحد سفلة القهوة ضايق سهام جدًا

- ماذا؟..

- لا تخف.. لقنته درسًا قاسيًا.. لا تنظر إلىّ الآن.. كنت بحال جيد فى الصباح

- و أين ذلك السافل؟

- فى المستشفى.. حطمت عظامه

- و سهام؟

- فى البيت عادت بعد ذلك.. حتى أنها لم تـذهب للعمـل اليـوم.. أستأذنك علىّ أن أنام قليلًا فأنا متعبٌ جدًا..

- تفضل..

استوقفه و هو في صعوده و قال :

- أستاذ ماهر.. شكرًا لك

كانت الشقة مظلمة.. لا ضوء على الإطلاق و كأن لا أحد فيها.. و لكن صوت بكائها كان واضحًا بالرغم من أنها كانت تغلق غرفتها.. دق برفق على باب غرفتها فسمحت له بالدخول.. كانت تخبئ وجهها عنه.. جلس برفق إلى جوارها فألقت برأسها على كتفه و دموعها تنهمر.. و عندما بدأت دموعها بالجفاف ناولها بعض الماء و مهدئ كي تنام...

في اليوم التالي استيقظت باكرًا و ظلت تنظر من خلف زجاج شباك الصالة.. تفكر بجدية.. الفكرة التي داهمتها من قبل حقا كانت غريبة و قاسية عليها.. أما هذه المرة لا حل آخر..

الفصل الثالث عشر

فكرت كثيرًا في الأمر كانت الفكرة التي داهمت عقلها على نحو غريب هي الزواج من ابنة خالتها التي ربته صغيرًا.. قالتها من قبل هو الرجل الوحيد في حياتها.. و إن كان عليها أن تتزوج فلما لا يكون زوجها.. لطالما كانت أما له.. هي لا تريد أن تكون زوجته لغاية أو سوء فكرت فيه.. هي لا تريد منه غير تلك الورقة التي تحتمي فيها لم تعد تقدر أن تدفع كل هذا الجنون الذي من حولها لمجرد أنها امرأة في النصف الثاني من ثلاثينيات عمرها دون زواج.. حاولت من قبل أن تكون زوجة كان من الممكن أن تكون أما حينها و تكون أسرة عادية.. و لكن سرعان ما عادت عن ذلك خاصة بعد الذي كان من أمر ماهر في المرة الاولى...

هذا درب من الجنون أوصلها إليه ما عانته من ألم.. صمدت طويلًا حتى كلت.. في صغرها كرهت أمها لسبب أشبه بذلك.. فزوجها الذي مات محروقًا معها كان يصغرها بعشر سنوات أو أكثر.. كثيرًا ما سمعت النساء يتحدثن عن الأمر ببعض من السخرية و النميمة.. كانوا يقولون إنها تمتص دماء الشباب حتى تبقى على شبابها إلى آخر العمر.. هذه هي الفكرة التي رسخت في عقلها منذ الصغر.. و الآن هي مضطرة لذلك..

في ذلك الوقت لم تفكر أنها ربما تدمر ما صنعته.. ذلك الشاب من حقه أن يكمل حياته كما يشاء.. ليس من حقها أن تربطه بذلك المصير.. و لكنها كرهت نفسها منذ المرة الأولى التى داهمتها الفكرة.. لا لذلك السبب و لكن لأنها شاهدت نفسها ترتدى عباءة أمها.. أفزعها الأمر جدًا تلك المرة.. لأيام تالية لم يهدأ الصداع ساعة واحدة بالرغم من كل المسكنات التى أسرفت فى تناولها.. حتى أنها فى نومها شاهدت أمها تنظر إليها و تضحك ساخرة منها كما كانت تفعل فى صغرها.. كانت تسخر منها فى كل شئ فى طريقة ملابسها فى طريقة مشيتها فى طريقة أكلها.. و كأنها كانت تعاقبها على قسوة أبيها إليها.. لم تهتم بها يومًا كأم صالحة.. أسرفت فى كل شئ حتى كانت تلك نهايتها المنتظرة..

فى الساعة العاشرة ميعاد عودته إلى المنزل.. دخل مبتسمًا إلى المطبخ حيث كانت تعد العشاء.. دومًا ما كانت تخاف القطط.. و دائمًا ما كان يخيفها بصوت موائها المصطنع.. و لكن تلك المرة تنبهت لوصوله قبل أن يقوم بذلك الصوت.. حاولت أن تتصنع الهدوء حينها و كأن شيئًا لم يكن.. كانت عازمة أمرها على أن تعرض الأمر عليه و لكنها أحجمت حين نظرت إلى وجهه و تذكرت حين كان صغيرًا يلجأ إليها خائفًا من شئ ما فيدثر رأسه فى حجرها لتهدئ من روعه.. ما أصعب ذلك على لسانها..

عرفت من تبسمه أنه رأى حبيبة قلبه اليوم.. و كان لذكرها طعنة

أخرى فى صدرها.. ما ذنب تلك المسكينة...

- هل رأيت جليلة اليوم؟
- من أين عرفتى؟
- الأمر بادى على وجهك
- لهذا أحبك يا سوسو
- دعك من ذلك و أخبرني.. هل ذهبت إليهم اليوم أيضًا؟
- لا بل جاءتنى فى الشركة.. سنذهب اليوم لعرض أوبرالى
- إذًا عليك اليوم أن تكون نجمًا.. ارتدِ البذة السمراء.. و القميص الجديد و الكرافات الرمادى
- لم لا تأتين معنا؟
- لا.. دعك منى أنا متعبة و علىّ أن أنام باكرًا
- سهام.. أرجوك انسِ الأمر.. فقد نال ذلك الوغد جزاءه..

كان الأمر أكبر من ذلك الحادث.. كانت ضعيفة.. للمرة الأولى تشعر بالضعف و الانكسار.. أى مهانة شعرت بها.. و أى سوء شعرت به حين وجدت نفسها فى تلك الغابة.. ربما لامت نفسها على أنها لم تتزوج.. و لكن مرضها كان عقبة فى طريقها .. الصرع ليس بالعائق عن الحياة الطبيعية و لكن الإصابة القديمة التى كانت سببًا فيه هى ما كانت حائلًا.. سوء علاج

على بعض المضاعفات أدت إلى ما هي فيه...

* * *

- تلك هي.. صوت سيارتها

- انتظر.. الكرافات

لم يحسن يومًا ربط الكرافات.. تعلمته هي.. منذ صغره يعتمد عليها في ذلك.. كان زيه المدرسى فيه كرافات كحلي اللون.. دومًا ما كان يشترى الكرافات جاهز العقد.. و لكن صديقه أسامه سخر منه لأنه كان يرتدي كرافات عادى.. لذلك طلب منها أن تشترى له الكرافات و تتعلم كيف تعقده.. و منذ ذلك الحين.. لا يعقده غيرها...

سريعًا عقدت الكرافات و وضعته على رأسه و تبسمت متذكرة كيف كان يشاجرها من أجله.. ثم نظرت إليه فاحصة هيئته و قالت :

- هيا.. لا تتأخر..

*

يبدأ العرض برقصة الهافانى الكلاسيكية.. تلك هى المرة الأولى التى يحضر فيها أوبرا كارمن.. لطالما تطلع لرؤيتها و لكنها نادرًا ما تعرض فى مصر.. منذ اللحظة الأولى من العرض كان منبهرًا بما يراه من اوركيسترا فكر في أمر الاوركيسترا بشكل غريب.. ماذا لو اعترض عازف الكمان أو الفلوت أثناء العرض سينهار ذلك التنظيم الشديد فى لحظات.. ماذا لو أخطأ أو تأخر في عزف النغمة التى أمامه بمفهومنا فى المصالح الحكومية أو من

باب " جل من لا يسهو ".. ينهار كل شئ في لحظات.. الكل طوع أمر عصى المايسترو يتبعها دون تفكير.. لم لا تكون الدولة بهذا الحال و لكن أين الديموقراطية إذًا.. ربما يسمح المايسترو بالاعتراض في البروفا مثلًا.. أو أثناء توزيع المهام على الآلات.. و لكن في العرض ليس من حق أى أحد أن يخالف ذلك.. هكذا تقوم الدول المنظمة.. هذا هو باب الوصول للحضارة..

ليس من حقك الحديث عن الديموقراطية في غير ميعادها و إلا صارت غوغائية.. كثيرًا ما كان يخشى من أفكار رفقاء الطريق السياسي باختلاف اتجاهاتهم.. فالعشوائية فيما بينهم و التخوين و التكفير سيؤدى للفوضى لا محالة.. ربما لم يكن ذلك ظاهرًا بين الناس و لكنه كان واضحًا فيما بينهم.. كان يرى مدى هشاشة ما يعرضون و لكن لا جدوى من الحديث.. ربما لو اتحدوا فعلًا لصارت البلاد إلى طريق أفضل...

هذه هى فلسفة كارمن كما فهمها.. الغجرية مفهوم لا تعرفه الحضارة.. لا يعرفه النظام و هذا ما نعانى منه أضحت العشوائية عنوانًا لكل شئ.. بدءًا من المساكن حتى أهم القرارات السياسية و المصيرية.. دولة بلا نظام.. لطالما آمن بأن النظام الذى يفرض سلطته بالقوة نظام رخو هش لا مفر له من الانهيار على الرغم من سطوته.. قد يكون ذلك قريبًا أو بعيدًا و لكن ماذا سيكون الحل حينها.. الغلبة ستكون لا محالة لرأس المال.. من يملك يحكم.. أشبه بالنظام الملكى و لكن بمفهوم أكثر قبحًا للطغيان.. طغيان

الحاجة و الذلل له خاصة و الفقر ينبش أوصال كل شئ...

و الحل كان صارخًا فى نهاية العرض أن تموت الغجرية و التى فى ظاهرها رمز للحرية و أصلها حياة بوهيمية لا تقيم حياة واقعية و تتعارض بشكل صارخ مع مفهوم الحضارة...

بين الحين و الآخر كانت تنظر إليه جليلة.. فتجده فى عالم آخر منشغلًا عنها بالعرض بشكل غريب.. لم يكن يشاهد العرض و حسب بل كان يعيشة بفهوم عانى منه و وجد فيه ضالته التى طالما بحث عنها.. فى نهاية العرض قام مصفقًا بشكل انفعالى جدًا.. كانت تشعر يومها ببعض الخيبة و كأنها كانت تأمل أن يلتفت إليها أثناء العرض او شئ كهذا.. كان ذلك ظاهرًا عليها فى رحلة العودة.. صمتها كان ينبئ عن هذا.. طوال الطريق كان يتكلم عن العرض و عن السياسة و الحب و النظام أشياء كثيرة.. و لكنها كانت تكتفى بالابتسام و بعض الكلمات البسيطة أثناء حديثه.. لم يكن يملك من الخبرة الكافية لفهم ما أحست به حينها من ملل و لكنه تمادى فى الأمر حتى أعلنت عن غضبها بشكل صارخ

- ألا تملك حديثًا آخر غير العرض..

قالتها بشكل فيه غضب واضح.. بعدها التزم الصمت.. فهم من ذلك أنه أزعجها بكثرة كلامه عن العرض.. أبله

الفصل الرابع عشر

عاد متأخرًا يومها سهرة الأوبرا كانت جميلة و ممتعة جدًا.. بهدوء فتح باب الشقة ليجدها على غير عادتها مستيقظة.. لم تعتد ذلك السهر.. نظر إليها مبتسمًا و قال :

- هل لا زلت متيقظة إلى الآن؟

- نعم..

- خيرًا..!!

- هل كان العرض جيدًا؟

- كان جميلًا.. بل رائعًا.. بدأ برقصات الغجر و الأوركيسترا كانت متناغمة بشكل غريب...

قاطعته في ذلك و قالت :

- أريد أن أحدثك في أمر..

- و هذا ما يجعلك متيقظة إلى الآن.. خيرًا

- كيف حال جليلة؟

- كانت غاضبة.. لا أعرف لم .. و لكني آثرت ألا أسألها عن

السبب.. غريبة...

قاطعته للمرة الثانية و قالت :

- أريد أن أطلب منك شيئًا..

- طبعًا.. ما هو؟

- تزوجني..

- ماذا؟!!

ابتسم قليلًا.. ثم ضحك و قال :

- تمزحين.. غريب أن...

قاطعته...

- أنا لا أمزح.. كما سمعت.. تزوجني..

أوقف ضحكه بعدما قاطعته بتلك الكلمات.. كانت صدمة على أذنه غريبة.. لم يتوقع يومًا أن يسمع ذلك منها.. هى مرتبكة متوترة مذ تلك الحادثة.. ربما لا تعى ما تقول.. بل بالتأكيد لا تعيه.. كيف يتزوجها؟!!.. بأى حق.. قضى عمره معها و هى بمنزلة أمه أخته الكبرى التى ربته.. طالما كانت المسئولة عنه.. تلك هى المرأة التى كان يلجأ إليها ليضع رأسه على صدرها يبكى و يشكو إليها.. لم يخطر بباله يومًا أن يكون زوجًا لها.. ربما كان يقول ذلك فى صغره.. نعم قالها ذات مرة و هو فى

الثامنة.. قال لها إن أردت أن تتزوجى فانتظرينى لأكبر و أكون لك زوجًا.. ما هذا الخبل الذى يدوى فى رأسه..

كان من البادى عليها أثر البكاء.. عينها حمراوتان و جفنها منتفخ.. لا يبدو عليها أنها تمزح.. كانت جادة فيما تقول كما كانت دومًا.. و لكن البكاء عاود مجرى عيناها من جديد.. بعد ما قالت ذلك.. أدرك ذلك الحزن حينها.. جلس إلى جوارها يقبل يدها.. ربما تهدأ.. و لكنها أمسكت بيده تقبلها و هى تبكى..

- تلك هى المرة الأولى التى أطلب منك شيئًا.. أقسم لك أنى لا أريد شيئًا منك.. لا أريد سوى أن ترحمنى مما ألاقيه ممن حولى.. لا يرحموننى.. ما عدت أتحمل.. أقبِّل يدك..

نزلت من على الأريكة لتجثو على ركبتيها أمامه تمسك يده تقبلها مترجية إياه.. كانت تلك صدمة أخرى بالنسبة له.. تلك هى المرة الأولى التى يراها بهذا الضعف.. قلة حيلتها كانت تقتله.. نظر إليها مبتل العينين و مندهشًا مما تفعل.. نزل مسرعًا يحاول أن يستوقفها.. و لكنها كانت لا تكف عن رجائه ثم قامت لتقول له بصوت مكتوم و حنجرة ضائعة...

- لقد فكرت كثيرًا فى الأمر.. لا حل آخر.. تلك الورقة ستكون هى حمايتى.. أقسم لك لا أريد غير ورقة..

- و لكنك..

- لا لست أمك أو أختك أمام القانون.. القانون لا يعرف تلك الفتاة التى مات أبوها لتعيش حياة تعسة مع امرأة مخبولة حتى ماتت.. لا يعرف أن خالتى ماتت و صرت مسؤلة عنك.. لا يعرف شيئًا.. كما لا يعرف الناس شيئًا.. غير الورق.. حتى لو خالفنا كل شئ آخر...

سكتت قليلًا أو أسكتتها الدموع ثم عاودت من جديد رجاءها

- أرجوك.. ذلك كل ما أطلبه منك.. و بالطبع إن شئت أن تتزوج سأزوجك بنفسى لمن تشاء.. لم يعد لى غيرك فى تلك الغابة.. أرجوك يا أحمد

ألجمته الصدمة.. ماذا يقول؟.. لا يعرف حقًا ماذا يقول أو يفعل.. كان مرتبكًا إلى حد التيه.. دخل لغرفته تائهًا.. ينظر لنفسه فى المرآة و كأنه يتعرف على نفسه من جديد.. كان الأمر عليه عظيمًا.. أما هى فأسرعت إلى غرفتها و لم تكف ليلها عن البكاء..

لامت نفسها بشدة عما فعلت.. و لكن لم تجد حلًا آخر تلجأ إليه.. أما عن ماهر فقد انطفأ وهجه من حياتها.. كانت ليلتها مقلقة كما كانت ليلته.. غلبه النوم حتى دون أن يغير بذته التى كان يرتديها.. فى تلك الليلة شاهد حلمًا مزعجًا أفزعه بشدة.. شاهد الناس و قد أحاطوا بسهام و كلٌ منهم

ممسك بكرباج يضربونها و هى تصرخ بشدة.. و هو يقف عاجزًا على أن يعينها.. استيقظ منفزعًا من ذلك الكابوس كانت الشمس قد سطعت.. سريعًا غير ملابسه ليذهب لعمله كان يومها سرحًا.. لا يسمع من يكلمه حتى.. لم يستطع أن يتم عمله ذلك اليوم.. استأذن ليعود إلى البيت...

أسرعت حينما سمعت صوت باب الشقة ينغلق.. كانت ممسكة بمنشفة فى يدها.. سألته متلهفة :

- هل بك شئ؟.. هل أنت مريض؟
- لا أبدًا.. تعبت قليلاً..
- ماذا قلت؟.. فيما حدثتك فيه أمس
- لا أعرف.. حقًا لا أعرف

للمرة الثانية ترجوه.. و تجثو على ركبتها أمامه.. كانت تنظر إليه بعين تكاد لا ترى مما أحاطها من سواد

- أنا لم أترجِ أحدًا من قبل فى حياتى.. أرجوك.. ارحمنى

أمسك بيدها لتقوم.. و قال لها :

- أرجوك أنت أنا لا أتحمّل أن أراك بهذا الضعف.. قومى.. قومى..

قامت و أمسكت رأسه بين كفيها كما كانت تفعل دومًا و قالت :

- أقسم أننى لم أجد غير هذا.. يال قسوة قلبى..

- لا.. لا تقولى ذلك.. سأفعل ما تريدين.. سأفعل..

كانت حزينة عندما قال ذلك و كأنها كانت ترجو أن يظل رافضًا للأمر حتى النهاية.. الشعور بالذنب يقتلها.. أما هو فلم يكن ليرفض لها ذلك.. ما يصنع فى مقابل كل ذلك الانهيار و الصدمات المتعاقبة التى واجهها..

وقفت و جففت دمعاتها و كأن قوتها قد عادت إليها من جديد و قالت :

- اذًا سأخبر كل الجارات.. و سأحضر المأذون.. و سأشترى فستانًا و سأشترى لك بذة جديدة.. و يوم الخميس القادم ينتهى كل شئ.. سأنتصر

نظر إليها و اكتفى بإماءة رأسه بالموافقة على ما قالت دون أن يعقب على الأمر.. لم يكن يريد غير أن يرضيها حينها...

* * *

بالفعل صنعت ما كانت ترنو إليه.. أخبرت كل الجارات بالأمر.. بالطبع كان الأمر حديث المدينة كلها.. أى خبل هذا لم يكن الكثير يعرف عنها و عن حقيقة قصتها و أن أحمد هذا ليس أخاها بل ابن خالتها رحمها الله.. الغريب فى الأمر أن الحديث عنها و التغمز لم يهدأ.. بل كان أبشع مما اعتقدت و لكنها اكتسبت ما كانت ترجو الاحترام.. نعم يتحدثون عنها بسوء و لكن لم يعد يجرؤ أحد على أن يتعرض إليها أو يضايقها و لو بقول سخيف..

و لكنها كانت بداية لما هو أسوأ.. ذكرى أمها لم تكن بالبعيدة عنها..

لم يكن يعرف عن أمها الكثير و لكن حينها صار الأمر متداولاً.. بالطبع انقسم الناس في رأيهم إلى آراء عدة.. منهم من جعل من أحمد ضحية.. ضحى بمستقبله ليتزوج امرأة تكبره بعشر سنوات.. و منهم من جعلها الضحية المقهورة على أمرها و التي لجأت لذلك حتى تحمي نفسها من الفتنة.. لم يهدأ بال الناس أبدًا.. و لم تكف ألسنتهم عن الكلام و لا عقولهم عن الظن بالسوء حينًا و بالخير حين آخر.. و لكنها صنعت ما كانت تريد في نهاية الأمر..

الفصل الخامس عشر

للمرة الأولى تقضى ليلة هادئة.. كانت تشعر أنها انتصرت على كل من أهانها فى يوم ما.. أوحى بذلك عقلها إليها بينما ابن خالتها التى أقحمته فى الأمر قلقٌ مفكرٌ فيما ينبغى عليه أن يفعل..

فى اليوم التالى نزلت تشترى فستانًا جديدًا لم تكن تريده أبيض اللون كبقية العرائس اختارت فستانًا عاديًا و لكنه قيمٌ.. و اشترت عقدًا جديدًا و قرطًا و بعض الزينة.. و بذة جديدة.. لطالما اشترت له ملابسه.. لكنها شعرت يومها أنها قاسية جدًا حتى أنها لم تستطع أن تمنع عينها من الدمع.. وقفت أمام زجاج العرض متخيلة يوم فرحه على من أحب.. هى حقًا سعيدة بنصرها و لكنه كان نصرًا مشوبًا بالتضحية به...

عندما عادت وجدته مستلقيًا على أريكة الصالة لم يذهب لعمله يومها يفتح التلفاز دون أن ينظر إليه عيناه سرحة فى السقف.. لم تسأل ماله فقد كانت تعرف.. و لكنها دخلت إلى غرفتها مغلقة إياها...

كانت تتحاشى الحديث معه فلا تضعف أو تفسد ما كانت ترجوه.. هو أيضا كان يخاف أن يخاطبها فى الأمر حتى لا يجرحها.. أو يحرجها.. بعد قليل قام ليلجأ إلى البحر فيشكو إليه ما يعانيه...

* * *

كانـت جليلـة تـشعر أنهـا كانـت سـخيفة بعـض الـشئ يـوم الحفـل الأوبرالى.. ربما كان ذلك هو السبب الذى جعله لا يكلمها أو حتى يـزورهم فى البيت منذ ذلك اليوم.. قررت أن تذهب هى إليه.. و لكنها لم تجده فـى العمل يومها.. فقررت أن تزوره فى البيت ربما يكون مريـضًا.. فـى مـدخل البيت قابلت الحاجة أم إبراهيم الجارة فى الشقة المقابلة.. كانت تعرف من تكون.. لطالما تدخلت فى شئونهم و عرفت ما لا ينبغى أن تعرفه.. قالت لها برفق :

- أنت جليلة.. ابنة خال الأستاذ أحمد
- نعم..
- أهلا بك يا بنيتى.. بالطبع هو يحتاج للأقرباء فى ذلك اليوم
- أى يوم؟
- يوم زواجه..
- زواجه!!..
- أجل ألم تعرفى أنه سيتزوج من ابنة خالتـه سـهام.. ألم يخـبرك بالأمر؟

كان وقع الكلمات على أذنها غريبًا.. لم تستطع أن ترد علـى مـا ادعتـه تلك العجوز.. هى تعرف سهام قابلتها كـثيرًا.. و لكـن هـى تكـبره بعـشر سنوات.. لا بالتأكيد تلك امرأة عجوز لا تـدرك مـا تقولـه.. ربمـا أرادت أن

تقول ابنة عمته و لكنها أخطأت فى الأمر.. أجل هو كذلك بالتأكيد...

- بلى أخبرنى.. شكرًا لك

- أنا لا أخرّف يا بنيتى.. أنا أدرك كل شئ.. كانت سهام تشترى اليوم فستان فرحها...

نظرت إليها بدهشة غريبة.. ثم صعدت بعض الدرجات على الدرج.. ثم توقفت قليلاً.. و فكرت فى أن تتراجع.. بل بالفعل بدأت فى التراجع.. ثم قررت أن تتأكد من الأمر.. صعدت مسرعة تضغط على زر الجرس بشئ من التردد مرة أخرى.. فتحت الباب سهام.. كانت متفاجئة بعض الشئ.. ثم قالت :

- جليلة تفضلى.. أهلاً بك

- هل ما سمعته حقًا؟

- أى شئ؟

- زواجك بأحمد..

- دعينى أشرح لك الأمر..

- إذًا هو صحيح.. أى شرح أنتظره؟.. اتضحت كل الأمور.. كنت تخدعينى.. أين هو؟

- ليس فى البيت.. أرجوك اسمعينى جيدًا

- لا أريد أن اسمعك.. ألا تخجلين.. عن أى كذب كنت تحدثينى من

قبل.. كيف ربيته.. ثم تصيرين لـه زوجـة.. لماذا؟.. قـولى لى لماذا؟.. أنـت تكبرينه بعشر سنوات.. عشر سنوات..

لم تكن سهام ترد.. بل وضعت رأسها فى الأرض كانت تسمع ما تقولـه جليلة اتهامات و إساءات لها و لأحمد.. و لكنها كانت تؤثر الصمت..

- مالك لا تردين.. إذًا هو كان يخدعنى أيضًا.. يتلاعب بى..

- لا.. تظلميه.. اهدأى حتى أشرح لك الأمر أرجوك

- كان ينبغى علىّ أن أكون أذكى من ذلك .. لن أسمع شيئًا..

نزلت مسرعة على الـدرج.. كانـت تبكـى و تـدارى دمعاتهـا.. ركبـت السيارة و انطلقت مسرعة حتى أنها لم تشاهد أحمد قادمًا من بعيد أو ربمـا شاهدته و آثرت أن ترحل.. و لكنه شاهدها.. فهم ما حدث.. لم يـستطع أن يلحق بها فاستسلم لما آلت إليه الأمور.. سمعت سهام صوت قدومه

- أحمد.. جليلة كانت هنا و....

- رأيتها..

- لم لم تلحق بها إذًا؟

- حاولت و لكنها كانت مسرعة..

- آسفة.. آسفة.. سامحنى أرجوك

- لا عليك.. لا عليك..

كان استسلامه غريبًا.. أطال النظر من الشرفة.. ربما كان ينتظر أن تعود.. على الرغم من أنه كان يعرف أنها لن تعود.. و أنها لن تقابله إن ذهب إليها يعتذر.. حاولت سهام أن تنسيه الأمر.. نادته ليرى بذته الجديدة و ما اشترته اليوم.. أمسكت العقد و نظرت في المرآة و هى تسأله

- ما رأيك بهذا؟

ابتسم إليها و قال :

- جميل.. و لكنك أنت الأجمل

لطالما كان يحلم باليوم الذى تتزوج فيه.. كان يشعر أن فى ذلك ردًا لجميلها عليه.. كان مستعدًا أن يرضيها حتى و إن كان ثمن ذلك غاليًا...

- انظر إلى بذتك تلك.. لونها جميل اخترته بنفسى.. هيا اذهب لترتديها أريد أن أراك فيها.. حتى نعدّل ما يحتاج لأن يُعدل فيها.. هيا اذهب

خرج من الغرفة ممسكًا بالبذة فى يده.. وضعها على كرسى فى الصالة.. و جلس قليلًا ينظر إليها.. متعجبًا يحاول أن يدرك الأمر.. ثم سمع صوت صراخها.. و كأنها آفاقت لما تفعله.. ألقت بكل شئ أمام مرآتها على الأرض.. دخل مسرعًا الغرفة ظن أن النوبة داهمتها.. و لكن يدها كانت مجروحة و تبكى بشدة.. نظرت إليه و قالت :

- سامحنى.. أرجوك سامحنى.. ويلى ما الذى أصنعه.. يالغبائي..

أنا أدمر حياتك.. أى لعنة أصابت عقلي.. أنانية.. كنت أنانية جدًا لم أفكر فيك.. سألغى كل شئ.. لن يكون هناك زواج.. لن أتزوج و ليصنعوا ما شاءوا..

- بل أنا من أرجوك.. ليبقى كل شئ..
- لا.. ما كان ينبغى أن أفعل..
- لا بل أن هذا هو عين العقل.. علينا أن نقوم بذلك..

أمسك بيدها المجروحة و أخذ يضمدها.. ثم قبّل يدها.. أمسكت بيده و قالت :

- اذهب الآن.. و قل لجليلة على الحقيقة.. لن أسامح نفسى أبدًا حتى تسامحنى.. هيا قم الآن.. أرجوك

بالفعل ذهب إلى بيت عمته.. و لكنه لم يستطع أن يضغط على زر الجرس.. كان صوت البيانو عاليًا و كأنها كانت تنقر أصابعه بكل قوتها.. كانت تشوه اللحن ثم تعاوده من جديد ثم تشوهه مرة أخرى.. لم يملك الجرأة على أن يواجهها.. ربما تحتاج لبعض الوقت لتهدأ.. غدًا يوم زواجه من سهام.. ظل يمشى على الكورنيش يفكر فى الأمر و يتساءل.. ماذا عليه أن يصنع؟.. هل حقًا سيتزوج من سهام؟..

الفصل السادس عشر

منذ وصله خبر زواجها من أحمد اعتكف ماهر عن الظهـور.. كـان فـي ذلك يأسٌ منه و استسلام لقدره الذى دومًا ما يحول بينه و بينهـا.. كـل مـا كان يرجوه حينها أن تسامحه عن أى إساءة لاقتها منه أو من أمه من قبـل.. كان حزينًا مكتئبًا ففي عصر هذا اليوم ستصير المرأة التى لم يحب فى حياته غيرها زوجة لابن خالتها التى ربته صغيرًا.. أى نوع من الخبل الذى لجأت إليه.. و كيف يرضى أحمد بذلك الأمر.. ربما تمنى لو قابلها فيحـدثها فـى أمره من جديد ليعتذر إليها.. ربما أقنعها أن تحجم عـن ذلـك.. أقـدم علـى ذلك مرارًا ثم يعاود ليغلق بابه من جديد.. يغلبه اليأس أو كان يقول كفى ما لاقتـه مـن أذى.. ربمـا تطـاول عليهـا فـى بعـض الأحيـان.. أو لعلـه حيـاء المحبين و إيثارهم.. فلتفعل ما تشاء طالما كان ذلك يسعدها...

بينما عقله سرح في ذلك وجد جرس البـاب يـرن.. فـتح البـاب فوجـده أحمد.. نظر إليه متعجبًا لقدومه.. هل جاء يطلب منـه شيئًا.. او ليـستعين به فى أمر ما.. لا يعرف و لكن شيئًا فـى صـدره قـد تـأجج حينهـا فبـادره وقال:

- إن كنت قد جئت تطلب مساعدة.. فسامحنى لن أستطيع..

- انتظر يا أستاذ ماهر.. اخفض صوتك.. و اسمح لى بالدخول..

- ما تلك التى فى يدك..

- هذه بذة جديدة.. هيا من فضلك..

وضع أحمد البذة على كرسى إلى جوار الباب ثم ابتسم.. لم يكن يعرف كيف يبدأ بالكلام فى الأمر.. و لكن كان عليه أن يفعل.. ما تريده سهام لا شك نوع من الإقدام على الانتحار.. أو ربما اليأس من دفعها لذلك.. و ربما هى الآن تبكى.. اليأس نسج عليها خيوطه و أحكمها فصارت لا تعرف ما تفعله.. أخذ بذته و أخبرها أنه عند الحلاق.. بالطبع لم يخبرها أنه ذاهب لماهر...

نظر إليه ماهر بتعجب ثم قال :

- أخبرنى إذًا ماذا تريد..

- اسمع يا أستاذ ماهر.. حقاً أنا لا أعرف كيف أبدأ الأمر.. و لكن لطالما لجأت إليك فى أمور تخصنى.. اليوم جئت لأمر يهمك أنت..

- تقصد سهام.. ألم ينتهى الأمر؟!

- اسمع يا أستاذ ماهر.. سهام لا تعرف ماذا تفعل الآن.. هى يائسة.. تفهم ما اقصده..

- فات الأوان..

- لا ليس بعد.. من فضلك ارتدِ تلك البذة.. من حسن الحظ أن

مقاسي مقارب لك..

- ماذا تقصد؟..

- نعم أقصد ما فهمت.. آن الأوان أن تعود الأمور لنصابها..

- و لكنها سترفض.. ربما أحرجتني.. أو أهانتني.. أنت تعرفها

قال ذلك و قد بدا على وجهه سعادة غامرة.. فقد عاوده الأمل من جديد..

- لا.. أنا أعرفها جيدًا

- ربما تراجعت عن الأمر بعدها.. أو كرهته..

- لن تفعل أقسم لك.. منذ الحادثة الأخيرة.. أشعر بأن الأمر قد تغير.. هيا لا تضيع الوقت.. و لكن أعلم.. ما تطلبه من حقها

- طبعًا.. كل ما أملكه لها.. قلت لها ذلك.. عن إذنك

توجه للغرفة مسرعًا.. كان سعيدًا و كأن روحه عادت إليه من جديد..

- نسيت البذة..

- لا.. عندى واحدة جديدة ادخرها لذلك اليوم.. كنت أعرف أنه سيأتي.. أنت ادخل إلى تلك الغرفة و ارتدِ بذتك..

- حسنًا...

° ° °

فى صبيحة يوم الخميس ذاك صارحته بسرها الذى كانت تكتمه طيلة عمرها.. حدثته عن أمها و عن الحريق.. بدأ الحوار بينهما بشكل غامض بعض الشئ.. لم يعلق أحمد كثيرًا عن الأمر و لكن عينيه امتلأت بالاندهاش.. كان كلامها يأخذه بعيدًا.. كثيرًا كان لا يصدق ما تقول.. أو كان لا يريد أن يصدق.. كيف لهذه الملاك أن تقتل..

نادته و قالت :

- إن كان قد قُدّر لنا أن نصير زوجين.. فسأصارحك بشئ تعهدت ألا أصارح به أحدًا أبدًا.. و لكن الآن صار الأمر من حقك.. و لن أخبر به غيرك.. هذا سرى.. لا تخبر به أحدًا.. عدنى بذلك أولًا

- أعدك..

كانت تخفض صوتها في الحديث بالكاد كان يسمع ما تقول و لكنه كان يسمع كل كلمة بوضوح.. أصغى إليها بكل حواسه.. كان متشوقًا أن يعرف كل شئ عن ذلك اليوم الذى طالما أفزعها فى الليل...

- كنت فى الخامسة عشر.. أقوم بشؤون البيت كلها.. لم أشعر يومًا أن هذا بيتى.. كانت أمى تعاملنى بقسوة غريبة.. على الرغم من أنى كنت أخدمها بكل حب.. لم أكرهها يومًا بالرغم من ذلك..

فى ذلك اليوم.. كانت تنام فى غرفتها مع ذلك الحقير.. آخر ما أتت به من حقراء.. لم يكن يعتنى أحد بأمرى.. مجرد خادمة تقوم بما تفعله كل

يوم.. ذلك السافل حاول أكثر من مرة أن...

سكتت قليلاً.. ثم نظرت إليه و ابتسمت بسخرية.. ثم قالت :

- تعرف.. يتحرش بى.. أخبرت أمى بالأمر و لكنها كانت تسخر منى و تقول إن هذا عقل مراهقات و أنه لا يجوز أن يفعل ذلك و هى فى مقام ابنته.. و فى المرة الأخيرة التى شكوت إليها.. وبختنى بشدة و سبتنى و سبت أبى.. لم أكن اعرف كيف تفكر تلك المرأة..

حتى أتى يوم الحريق.. كنت فى المطبخ أعد بعض الطعام.. أتيت من المدرسة متأخرة ذلك اليوم.. لم تكن أمى تلتفت لقدومى أو لعدمه و لكنها كانت تلتفت للطعام و ما أصنع لها و لزوجها من خدمات..

دخل على ذلك الوغد بينما أعد الطعام.. لم أكن يومًا أرتدى ملابس غير محتشمة.. أنت تعرف ذلك.. لا أحب أن أظهر من جسدى شيئًا..

كنت واقفة أمام الموقد.. أتى من خلفى دون أن أشعر به.. أمسك بى بشكل سافل مثله.. كان قدر الماء يغلى أمامى فألقيت به فى وجهه.. لم أشعر حينها و أمسكت السكين و طعنته بها فى رقبته.. ثم وقفت أنظر إليه و هو يحتضر.. شعرت حينها أننى انتقمت لنفسى.. كنت مصدومة جدًا من الدم.. لم أعرف ماذا أفعل حينها.. كان علىّ أن أواجه ما صنعت.. و أمى نائمة فى غرفتها.. خفت أن أخبرها بشئ.. لم أجد امامى غير علبة قديمة فيها بعض الجاز.. أخذتها و أفرغتها عليه.. و أشعلت جثته.. أمسكت

النار حينها في كل شئ.. فالبيت كان خشبيًا.. سرعان ما انتشرت النار.. كنت أقف خائفة.. حاولت أن آتي بالماء و لكن الحمام كان بعيدًا.. حالت النار بيني و بينه.. حاولت أن أوقظ أمي لنهرب من تلك النار.. و لكن النار كانت تمنعني.. ظللت أنادى عليها و لكنها لم تسمع.. ناديت عليها كثيرًا.. صدقني.. لم أكن أريد أن تموت.. أقسم لك.. ظللت أنادى عليها حتى وصلت النار إليّ.. لم يكن خلفي غير نافذة الصالة.. و لم أكن أعي لما أفعله.. قفزت من النافذة.. كنت أنظر منها فأجد أناسًا كثر يقفون في الأسفل.. كنت أصرخ دون أن أعي لشئ.. لم أجد من يحميني حينها.. تمنيت كثيرًا لو كان أبي حيًا لما صار ذلك كله.. النار كانت تقترب مني كادت أن تودى بي.. و لكنني قررت أن أهرب من ذلك.. لم أفكر في الأمر قفزت من النافذة.. و ارتطمت بالأرض.. ثم لم أشعر حينها بشئ.. ليتني مت يومها.. ليتني مت...

كانت الدموع تزرف من عين أحمد.. لم يعقب على ما قالت و كأن ما سمعه كان ثقيلًا.. أخذها بين ذراعيه.. و هي تبكي كانت تقول.. قتلت أمي.. أنا لم أكن أعرف ماذا أفعل حينها صدقني.. صدقني...

سكتت قليلًا ثم قالت :

- ها أنا الآن مثلها..

- لا.. لا تقولي هذا.. لست مثلها أبدًا.. أنتِ أعظم منها.. ستظلين عندي أعظم النساء..

- حتى بعد ما سمعت!

- حتى بعد ما سمعت.. أنتِ أعظم امرأة عرفتها فى حياتى.. أقسم لك.. هيا.. هيا لنستعد للمعركة.. سننتصر.. أليس كذلك

كان يحاول أن يرمم ما بقى من تلك المرأة.. شعور الواجب نحوها كان طاغيًا فى ندائه.. كيف له أن يهرب!!.. لن يترك تلك المسكينة أبدًا.. ذلك عهد قطعه على نفسه فى ذلك اليوم...

* * *

كان اعترافها له.. هو الدافع إلى ما أقدم عليه.. لم تكن ستسامح نفسها إن تزوجته حقًا.. سيكون الأمر ذنب آخر تحمله نفسها.. كان ما أقدم عليه هو عين العقل بالنسبة للجميع.. و لكن هل ستقبل بالأمر أم ستعاود لعنادها القديم.. لم يكن يظن ذلك..

* * *

هيا يا أستاذ ماهر سنتأخر.. المأذون قد حضر.. هيا بنا

- هل كل شئ منضبط؟.. أم أن هناك شئ...

- لا كل شئ جميل.. هيا بنا.. هيا

و هو ينزل الدرج.. وقف و سأله..

- ماذا لو لم ترضَ بذلك.. و أصرت أن...؟

- سألبى لها ما تشاء.. لن أغضبها أبدًا.. و أنت كذلك.. إياك أن تغضبها يومًا

- طبعًا.. طبعًا.. لن أفعل أعدك

* * *

- ما الأمر يا سهام يا ابنتى.. أين العريس؟!.. سأتأخر
- لا تخف لن تتأخر.. أعدك.. انتظر فقط قليلًا يا شيخ منصور
- نكمل البيانات إذًا.. ما اسم العريس؟

دخل أحمد من باب الشقة المفتوح و بادره قائلًا

- ماهر السيد حسن..

نظرت إليه سهام.. متعجبة لما يقول.. ثم وقف أمام الباب و قال :

- تفضل يا سيد ماهر

نظرت إليه مبتسمة.. و كأنها فهمت.. لم يكن تأخره ذلك بسبب الحلاق كما كانت تعتقد.. وقف ماهر ينظر إليها و عيناه مملوءة بالرجاء.. ممسكًا فى يده شبكتها القديمة التى احتفظ بها إلى هذا اليوم..

جلست على الكرسى.. و ابتسمت ابتسامة غريبة بعض الشئ.. ثم وضعت يدها على رأسها و كأنها تفكر قليلًا.. فبادرها الشيخ بقوله

- ماذا يا ست سهام.. هل تقبلين بالسيد ماهر زوجًا؟

سكتت و لم تجب.. و ظلت تنظر إلى الأرض.. طويلًا.. حتى أن ماهر همّ بالرجوع و الخروج من البيت.. و ما أن وصل إلى باب الشقة حتى قالت بصوت فيه بعض الحياء

- نعم.. أقبل...

التفت ماهر إليها و قال :

- حقاً..

اكتفت بهزة رأسها بالإيجاب.. كانت تنتصر للمرة الثانية على كل من حولها من جيران جعلوا منها في الأيام الماضية حديثًا لهم و كأنها صفعت الجميع بنفس القلم.. جرى ماهر يمسك يدها.. يقبلها و يضع الشبكة بين يدها.. ثم قال لها :

- سامحيني.. أرجوك.. لم أكن لأفعل شيئًا يؤذيك.. أبدًا

يومها كان الجيران يتصارعون في الشهادة على عقد الزواج.. و كأنهم رأوا في ذلك اعتذارًا لها.. كانت تنظر إليهم نظرة نصر دون أن تتكلم..

شعر أحمد حينها بفرح و خجل منها.. شعر و كأنه تملص مما كانت تريد.. لم يكن يعرف ماذا يفعل يعتذر أم يبارك لها.. و لكنها لاحظت ذلك منه.. فنادته.. فبادر بتقبيل رأسها.. ثم قال :

- ستبقين عندي أعظم النساء.. لم أكن لأفعل غير ما يرضيك

- لا تقسي على نفسك.. ستبقى عندي أعز الناس.. قد أحسنت تربيتك حقاً.. لم أكن لأسامح نفسي يومًا..

أخذ يدها يقبلها و هي كذلك أخذت يده تقبلها.. الآن شعر فقط أنه فعل ما ينبغي أن يفعل منذ زمن..

الفصل السابع عشر

في يوم الجمعة الذى تلا فرح سهام.. وجد الباب يطرق باكرًا.. ترى من الطارق.. لدى سهام مفتاح.. قام فزعًا بالطبع.. بالكاد حاول أن ينام ليلة هادئة بعد كل ما لاقى فيها من عنت نفسي.. كان يتمنى ألا يفتح الباب فيجد سهام.. لا لكره أو غضب منها.. و لكن كان سيشعر حينها أنه قد ظلمها أو أنها لم تستطع أن تقدم على حياة جديدة كما كان يتمنى لها..

فتح الباب فوجد عمته و ابنها إسماعيل.. كانت عيناه حمراوتان لم ينم بالطبع.. أصر يومها ماهر على أن يجهز فرحًا كبيرًا حتى الصباح.. فرح أهل المنطقة كلهم بذلك الفرح.. و سهروا حتى الفجر..

- عمتي..
- هل جئت في وقت غير مناسب يا عريس؟

سمع منها ذلك.. ثم ضحك حينما أدرك ما تقول.. ثم أشار إليها اجلسي..

- هل من مضحك؟
- لا أبدًا..
- و لكن أين العروس.. لا أراها

- في بيت زوجها..

- زوجها..

- اجل.. اهدأى قليلاً لأخبرك بالحقيقة.. سأحكى لك الأمر من البداية

بالطبع فعل.. قص عليها الأمر كاملاً.. لم تعلق كانت تسمع باهتمام شديد.. ثم قامت بهدوء غريب.. و عادت الى بيتها.. لم يمر وقتٌ طويلٌ بعدها.. لتجد سهام باقة من الورد مرسلة باسم جليلة.. مكتوب عليها.. " آسفة.. كلمة لا تعنى شيئًا.. و لكن لا أملك غيرها لأقوله "..

* * *

لم نجد فى ذلك اليوم حلا آخر.. غير سلم المسجد الخشبى الكبير.. كنا نريد أن نخبئ تلك الأوراق بعيدًا عن أعين أمن الدولة.. الأمر كان أشبه بمنشورات ضد الملك و الإنجليز كما تمثلها الأفلام القديمة فى السينما.. لم تكن منشورات حقًا و لكنها بعض الكتب التى تعدها أمن الدولة من الموبيقات.. صدرت تلك الكتب مؤخرًا فى حين كانت النسخ المسربة منها محدودة جدًا.. كان يقرأ تلك الكتب.. كنوع من الشعور بالنصر.. أو بالفرح لأنه استطاع أن يخادع رجال الأمن و لو كان منفردًا بذلك فى غرفته بعيدًا عن الأعين .. من الكتب التى كانت توزع فى بعض من التكتم و أخرى من التى تمنع بشكل قاطع.. أخبرتهم مصادرهم أن بعض المداهمات ستقوم فجر

ذلك اليوم.. بالطبع عن إخفاء تلك الكتب واجب.. لم يجدوا غير العشة القديمة المنصوبة فوق سطح منزل أحمد.. كانت عالية جدًا لذلك احتاجوا للسلم الكبير بعض الوقت حتى تنقشع تلك الغمة..

الشيخ صالح رجلٌ صارمٌ.. لم يكن يفرط أبدًا فى سلم المسجد إلا لمن على هواه الفكرى.. لذلك كان الحصول على السلم يحتاج بعض الحيلة.. الشيخ صالح ليس إمام المسجد و لكنه أمين المسجد عامل بسيط و لكنه بين الناس هو الشيخ فتح الله عليه علمًا فياضًا.. يستفتيه الناس فى كل شئ فيفتيهم بلا تردد فى أمور حياتهم فيزيدهم نفورًا.. أفتى المكوجى صاحب المحل الذى بجوار المسجد فتوى كاد أن يخسر فيها كل شئ.. كانت فتوى طلاق.. و قد حكم بفقهه الشامل أنها محرمة عليه كظهر أمه.. و بالرغم من أنه حلف عليها غاضبًا بالطلاق بلفظة واحدة " عليا الطلاق بالتلاته " فلا يجوز أن يعود إليها إلا إذا تزوجت من غيره.. شكى ذلك الأمر لأحمد لم يكن أحمد فقيهًا و لا يفتى الناس مثل الشيخ العلامة.. الذى كان رصيده من العلم أنه عامل ينظف المسجد.. و لكنه نصحه بالذهاب لدار الإفتاء لتحكم فى الأمر.. كان حال الرجل يبكى و يضحك كنوع من الكوميديا السوداء.. كان يشد فى رأسه و يقول :

- ماذا أصنع فى أولادى الخمس؟ و ماذا إن تزوجت أمهم؟.. هل أتزوج أخرى و أدعهم بين أنياب زوجة أب تذيقهم مرارة الحياة ؟!!

أما عن الأمر المضحك.. عندما رجع من دار الإفتاء و علم يومها أن الأمر ينتهى إلى صدقة أو إطعام بعض المساكين.. كاد أن يقتل الشيخ.. أدمى رأسه بقالب من الطوب.. و بالرغم من أنه أخذ من دار الإفتاء صورة مكتوبة من فتواه إلا أن الشيخ مصر على رأيه.. و يقول :

- هذا هو صحيح الدين أيها الجاهل.. شيوخ الأزهر يخترعون

ثم أخذ بعدها فى إلقاء خطبة مديح فى ذاته المتفانية فى التواضع و سباب فى الأزهر الذى خدع العامة بما ليس فى الدين...

الحيلة يومها كانت فكاهية بعض الشئ.. ادّعى منصور زين العابدين صديق أحمد و جاره فى الإسكندرية و عضو فى حركة كفاية أن ابن أخته عالق على سطح البيت و لا يستطيع النزول.. على الرغم من تلك القصة المثيرة التى ابتدعها منصور إلا أنهم كانوا يعرفون أنه لن يعطيهم السلم.. لذلك أثناء حكاية منصور للشيخ عن ابن أخته كان السلم خارج المسجد.. حمله أحمد و مصطفى أخو منصور إلى حيث يريدون.. و عندما اطمأن منصور أن السلم قد خرج من باب المسجد.. استأذن الشيخ و انصرف و عندما سأله عن الولد العالق.. لم يجبه و انصرف مسرعًا..

عندما أدرك الشيخ أن السلم ليس فى مكانه.. أعلن فى الميكروفون عن سرقة سلم المسجد.. كان حينها أحمد يخفى كل ما يدينه من أوراق و كتب فوق العشة القديمة.. انقضى الأمر سريعًا..

عندما يئس الشيخ من النداء فى الميكروفون قرر أن يخرج يبحث عن السلم بنفسه خارج المسجد فى الشوارع المحيطة له.. فى ذلك الوقت أسرع أحمد و منصور ليعيدا السلم الى مكانه فى المسجد.. تأخر الشيخ بعض الوقت فى بحثه.. يسأل الناس عن السلم أو الولد الذى كان عالقًا فوق السطح فلا يجد من يجيبه عن الأمر..

كان الناس قد احتشدوا حينها أمام المسجد ليروا السلم الذى سرق.. ثم أقسم الشيخ لهم أنه سرق و عندما دخل ليريهم أنه ليس فى مكانه وجده مكانه.. و عندما حدثهم عن الذى جاء ليخبره عن الولد العالق.. تعجب الناس مما يقوله و أدركوا حينها أنه قد تأثر بالإصابة التى كانت فى رأسه من المكوجى.. و منذ ذلك الحين لم يعد يسمع الناس لفتواه...

* * *

لطالما حلمت كأى فتاة فى صغرها أن تذهب فى رحلة مع زوجها بعيدًا فى بلد لم تره من قبل.. كأى امرأة فى مجتمعنا الشرقى تطوق للخروج من دائرة حجزها.. السجن القهرى الذى تعيش فيه أبدًا.. و لو لبعض الوقت من حقها أن تخرج منه.. عاشت حياتها الوحيدة ما بين العمل و المطبخ و غرفة وحدتها الموحشة.. بالطبع لم تكن لترفض الرحلة الأولى مع زوجها إلى شرم الشيخ.. تلك البلدة التى أعدت لتكون معزلًا لكبار الدولة عن الدولة نفسها.. طاقت لرؤية ذلك المجتمع و تلك الطبيعة التى يستأثرون بها دون

العامة..

عندما أخبرت أحمد بالأمر كانت الفرحة تغمر عينها.. أما هو فشعر بالخوف.. لم يكن يعرف سبب خوفه.. لم يستطع أن يتخلص من شعور الأم نحوها.. شعر أن أمه ستتركه و تسافر بعيدًا.. حتى و إن أخبرته أنها لن تغيب في تلك الرحلة.. و لكنه آثر أن يكتم ما يسره عنها.. عله شعر بالخجل من نفسه.. عليه أن يعى أنها الآن صارت امرأة متزوجة و حرة.. و لكن لعنة طفولته التى لا تزال في صدره تصحو فيتذكر أنها ليست أمه.. و أن من حقها أن تفعل ما تشاء..

- احرص على نفسك فى غيابى.. و عدنى بذلك

- أعدك.. احرصى أنت على زوجك.. النساء فى شرم الشيخ عرايا كما ولدتهم أمهاتهم..

- حقًا..

كان سؤالها ساذجًا الى درجة أضحكته.. بدا عليها و كأنها تتراجع عن تلك الرحلة.. قاطع ماهر ذلك الحديث

- لا.. ليس فى كل الأماكن يحدث هذا.. فقط فى بعض القرى الخاصة بالسياح.. هيا بنا حتى لا نتأخر..

قامت مثقلة من مكانها.. و كأنها شعرت بالذنب نحو أحمد فى أن

تتركه وحده.. و لكنه قرأ ذلك سريعًا و قال:

- أعدك أن أكون بخير.. اذهبى هيا.. هيا يا سهام لا تتأخرى

نزلت إلى السيارة و أغلقت الباب ثم نظرت إليه من شباك السيارة.. كان يقف فى الشرفة ينظر إليها.. ثم سريعًا انطلقت السيارة.. و شعر بأنه يريد أن يلحق بها.. فتح باب الشقة و أسرع فى النزول حتى وصل إلى الشارع.. و لكن السيارة قد انطلقت بعيدًا.. أدرك أن عليه أن يواجه نوعًا جديدًا من الحياة..

الفصل الثامن عشر

عانى يومها من الوحدة.. لم يجد شيئًا ليصنعه غير مشاهدة التلفاز.. ظل ساعات يتنقل بين القنوات.. شاهد فيلمًا كارتونيًا كان يحبه في صغره و كان سعيدًا جدًا به حتى أنه نام كما كان يفعل في طفولته.. ثم استيقظ ليشاهد نشرة إخبارية و قد دوى صوت الرصاص و صورة الدم على شاشة التلفاز.. و سرعان ما تبدل المشهد بصورة المذيعة الأنيقة مبتسمة و هي تحكي عن حال دولة أضحت شبحًا..

- " ما انجلى الليل حتى سمع صوت الرصاص في أرجاء بغداد ثم أعقبه دوى انفجار حاد في السوق للعاصمة العراقية.. ذلك الصوت الذى اعتاده أهلها كل ليلة حتى صار الأمر عاديًا بالرغم من مواجهة الموت في كل طلقة تخرج من فوهة سلاح.. إلا أن أهل بغداد يمارسون حياتهم بشكل طبيعي فقد تساوى لديهم البقاء و الفناء... "

أيقظ ذلك ذكرى والده الذى لم يره بالقدر الكافي ليتذكره.. مات أيضا في بغداد و لكن قُدِّر له أن يموت ميتة طبيعية بغير رصاص.. حمد الله أنه لم يمت مقتولاً في مذبحة من تلك المذابح اليومية في العراق أرض الأشباح.. في لغتنا العامية كلمة " يتبغدد " تلك الكلمة التي أخذت من اسم بغداد

دليلًا على مدى الرفاهية و رغد العيش التى تمتعت بها تلك العاصمة العربية..

لطالما كانت بغداد أرض عيش رغد للمصريين من قبل.. و أخرجت تلك الكلمة لتكون رمزًا للثراء الفاحش.. ثم يقسو المشهد بما عليه الآن بغداد.. أثار ذلك عنده القلق.. ماذا لو صار الأمر فى مصر من الفوضى ما صار فى بغداد؟.. ماذا إن قررت أمريكا أن تحارب مصر بدعوى بهتان مماثلة كالتى قضت على بغداد بها من قبل؟.. متى ينقضى ذلل مصر؟؟؟

لم يجد جوابًا فى رأسه غير الثورة.. لا أمل فيما يراه من حوله.. و لا شئ كان ليصنعه غير ذلك.. كثيرًا ما راجع نفسه هل حقًا يسير على طريق قويم.. هل من حقه فعلًا أن يغير ما يراه قبيحًا فى بلاده..؟.. لم تنتهِ تساؤلاته يومًا عن ذلك.. و لم يجد جوابًا آخر فى كل مرة غير الثورة...

* * *

لم تغب النبوءة فى التحقق هذه المرة فى اليوم التالى لقتل خالد سعيد.. و جد نفسه محاطًا برجال أمن الدولة و هو لا يزال يرقد فى سريره.. قام لينظر إلى الساعة ليجدها لازالت الثالثة و النصف لم يؤذن الفجر بعد و بقى كثيرًا عليه.. نظر إلى الضابط مبتسمًا و هو رافع طبنجته فى وجهه و قال :

- لا يزال الوقت باكرًا.. صلاة الفجر لم تؤذن بعد.. أنتم زُوّار الفجر هكذا عرفتم... هل أصبحتم زُوّار قيام الليل أيضًا؟.. جزاكم الله خيرًا

- أنت.. انضممت للإخوان أم للتكفيريين يا ابن الـ..؟؟

- لا داعى للسباب أنا قادم.. رغم إرادتى.. تحت أمرك

دخل أحد الباحثين يخبر الضابط

– لم نجد شيئًا يا فندم..

سمعت سهام ذلك الصوت فى الأسفل.. صوت شتائم.. أدركت حينها أنهم أتوا ليقبضوا عليه كما فعلوا من قبل.. يومها لم تستطع أن تفعل شيئًا.. نزلت على الدرج مسرعة واضعة على رأسها طرحة مسرعة غير محكمة كما كانت تفعل دومًا و لكنها لم تلحق بهم كانوا قد أخذوه إلى حيث لا تعرف.. لحق بها ماهر.. هو يعرف أن لا أحد يمكنه أن يفعل شيئًا.. بالرغم من بكائها.. استسلمت للأمر هذه المرة.. حاولت التماسك و أسرعت إلى باب شقته الذى كان لا يزال مفتوحًا.. ثم نظرت إلى صورة خالتها على الحائط.. و كأنها كانت تعتذر إليها لضعفها و أنها لا تستطيع أن تحمى ابنها.. و سرعان ما أغلقت الباب و كأنها لم تكن تتحمل نظرتها إليها...

كانت توًا عائدة و زوجها من رحلتهم.. الأمر كان قاسيًا عليها إلى حد لم تستطع تحمله.. و فى الليل عاودتها نوبة الصرع بعد غياب طويل حتى ظنت أنه غادرها و لن يعود.. كانت قد أخبرت زوجها بالأمر و صارحته به.. و أخبرته كيف يتصرف حيال ذلك...

* * *

هذا هو الوقت الذى اختارته جليلة لزيارتها.. كان عليها أن تعتذر بشكل رسمى أكثر.. ألح عليها الأمر بشدة.. شعرت بالذنب نحوها.. و كان عليها أن تتخلّص من ذلك الشعور ما إن عرفت أنها رجعت من رحلتها حتى قررت أن تزورها و لكن فى وقت لا يكون أحد غيرهما فى البيت.. زوجها قد عاود إلى عمله.. و مالم تكن تعرفه أن أحمد معتقل للمرة الثالثة فى حياته.. لطالما كانت تسمع له و لأفكاره بشئ من الإعجاب و لكن أمر اعتقاله لا يزال سرًا يكتمه عنها.. ربما خشى أن يخبرها فتغير نظرتها إليه.. أو ربما تخاف منه أو تكون ممن يسارعون بالاتهام كبقية جيرانه من حوله.. حتى اتهمه البعض بالعمالة لإسرائيل فى المرة الأولى لاعتقاله.. ليدخل بهذا الاتهام موسعة جينيز ليكون أصغر جاسوس عرفه التاريخ..

كل تلك الفترة السابقة كانت تتهرب منه كلما عرفت أنه يحاول الاتصال بها.. تخجل منه على نحو بعيد جعلها لا تقدر على أن تواجهه بعد فعلتها.. آثرت أن تقابل سهام قبله لتعتذر لها و تتأكد أنها قد صفحت عنها حقًا...

ترددت فى أن ترن الجرس.. و لكن فى نهاية الأمر فعلت.. فتحت سهام و فى يدها ملعقة كبيرة من التى تُستعمل فى الطهى.. نظرت إليها و كأن لسانها قد عجز عن الاعتذار و لكنها اكتفت فى تقديم باقة الورد التى أمسكت فى يدها.. أخذتها سهام بابتسامة و أبدت أنها لا تحمل فى نفسها

شيئًا من ناحيتها.. بالرغم من ذلك كان باديًا على سـهام التعـب و الحـزن.. قالت لها بصوت متعب :

- تفضلى يا جليلة

دخلت و على وجهها الخجل.. سكتت قليلاً ثم قالت :

- أنا لا أعرف حقًا كيف أعتذر إليك.. لا أجد شيئًا لقوله على الرغم من أنى أعددت كلامًا لأقوله مرارًا فى رأسى..

- اسمعى لا تقسى على نفسك و علىّ.. أنا أيضًا كان علىّ أن أخـبرك بكل شئ من البداية.. و أنا أيضًا علىّ أن أعتذر.. لا عليك.. لحظة فقط أرقب ما على النار..

دخلت إلى المطبخ مسرعة.. كاد الطعام أن يحترق.. أطفأت الموقد و عادت إلى جليلة.. تسألها ما تحـب أن تـشرب.. وجـدتها تنظـر إلى صـورة كـبيرة معلقة لخالتها على الحائط فى أحد أركان شقتها..

- اسمحى لى.. عندى بعض الفضول لسؤالك

- تفضلى

- لما لم تعلقى صورة لوالدتك..؟

لحظات مـن الـصمت تلـت هـذا الـسؤال و لكنهـا وجـدت منـه المخـرج سريعًا..

- لم أعش مع أمي بقدر ما عشت مع خالتي.. شاى؟

- ماذا؟

- هل تحبين بعض الشاى؟

- آه.. نعم

أسرعت فى إعداد الشاى ثم جاءت تحمله.. و معه بعض من الكعك و البسكويت

- هل قابلت أحد الجيران؟

- لا.. ليست هذه المرة أيضًا

- لم أقصد شيئًا؟.. و لكنى سأخبرك خيرًا من أن يخبرك أحد آخر.. أحمد يحبك.. أنا أعرف هذا جيدًا.. لذلك عليك أن تعرفى بكل شئ.. هل تعرفين أين أحمد الآن؟..

- فى عمله؟!

- لا.. فى أمن الدولة.. معتقل.. لا لشئ إجرامى.. الأمر سياسة.. ليست تلك هى المرة الأولى التى يعتقل فيها.. تلك هى الثالثة.. زوجى الآن يبحث له عن أى مخرج من الأمر.. و لكن هو محتجز دون اتهام أو تحقيق رسمى حتى..

بدى على جليلة القلق بعض الشئ.. عندما سمعت ذلك من سهام.. لم

تكن سهام تريد شيئًا من قولها ذلك غير أن تصارحها حقًا بكل شئ.. في نظرها ليس الأمر عار عليها أن تخفيه بل هو شرف له.. لم يكن يومًا مطالبًا أو طامعًا في سلطة أو منصب أو جاه كغيره و لكن يريد أن يعيش على أرضه حرًا.. لا في غوغاء هو يعرف معنى أن يكون حرًا حقا.. أدركت القلق الذى في عين جليلة فقالت لها :

- عليك أن تفخرى به كما أفخر به.. أفخر بأني جعلته رجلًا يأبى أن يكون ذليلًا.. يأبى أن يعيش في بلده منكسر الجبين.. ستسمعين كل سوء عنه من الناس.. لا تصدقى أحدًا.. أقسم لك أن لا أحد يحب تلك الأرض بقدره.. أتفهمين؟

أومأت برأسها أن نعم.. ثم وضعت رأسها في صدر سهام.. و أخذت تمسح على رأسها.. ثم قبلتها بين عينيها و قالت :

- كل يوم أعرفك فيه أكثر.. يؤكد لى أنك أعظم امرأة على تلك الأرض

- لا.. لست كذلك.. أنت الآن عليك أن تقررى أما أن تكونى معه.. أو تتخلى عنه.. و لا تظنى الأمر سهلًا.. و لكنك إن فعلت ستكونى أنت أعظم النساء حقًا يا جليلة...

الفصل التاسع عشر

كانت التحقيقات هذه المرة تحقيقات واهية.. نتيجة بعض الفشاطات عبر الإنترنت بعد حادثة خالد سعيد الشاب المصرى الذى تم ضربه بشكل قاس فى أحد المقاهى فى الإسكندرية عيانًا أمام العامة.. و ادعت أجهزة الأمن المسؤولة و التى لا يزال مسؤلو هذه الحادثة يعملون فيها فى مناصبهم حتى بعد الثورة بسنوات.. اشترك فى ذلك الأمر فئة الصفوة من الشباب المصرى.. ممن حملوا قضية وطنهم فوق الأعناق فأودت بهم إلى غياهب السجن.. منهم من كان صادقًا فى دفاعه عن فكره و منهم من أراد من ذلك حاجة فى نفس يعقوب فسرعان ما تبدل حاله بعد الثورة.. كانت الأيام التى قضاها هذه المرة تتسم بالمرح.. حقًا بالرغم من بعض الممارسات المعتادة من التعذيب إلا أن الزنزانة التى جمعته بأصدقائه هذه المرة كانت كفيلة بمواساتهم فى تلك المحنة.. لا يعرف إن كان هذا الجمع وليد الصدفة و القدر أم من تدبير الجهاز الأمنى المتسلط. على كل حال كان سعيدًا بذلك.. لم يرَ اصدقاءه منذ أن كان فى الجامعة.. أما الآن الأمر إجبارى ليجتمع الأصدقاء.. بالرغم من خلافه معهم جميعًا و خلافاتهم فيما بينهم فلكل منهم وجة هو موليها و فكر يعتنقه سياسيًا...

السجن مدرسة كبرى.. هو بمثابة الشعلة للفكر بالنسبة لأصحاب العقول.. و نقطة التّحول التى حظى بها الكثير ممن غيروا وجه الأرض.. أما بالنسبة للحالات النفسية فيه فهى معدية إلى أبعد الحدود.. خاصة الضحك.. و كأن المحروم من حريته يتلمس الفرحة حتى و إن كانت زائفة.. و كذلك انتقال الأفكار فيه تتفشى كالمرض الذى يعدى.. خاصة لأصحاب العقول القاصرة.. فيه ينمو العفن.. لا أقصد على جدرانه بل فى عقول مسجونيه.. لا يقدر ذلك غير الذى قضى فى السجن سنوات طويلة.. ربما المنبت الأول للفكر الإرهابى كان نابعًا من غياهب السجون.. هكذا تبدأ الفكرة.. النقمة على الحياة أولها و العزلة ثانيها ثم يتحول الأمر للتطرف الفكرى خاصة إذا مورس بعض العنف.. و يبدأ حب ممارسة العنف يسكن النفوس عن غير إدراك من صاحبها.. فما أن تسنح الفرصة للسجين ليكون محل السجان.. لا يتردد للحظة ليكون مثله.. و هكذا ينتهى الأمر.. يولد جنين شخص آخر حانقًا محبًا للتسلط..

بدأت الممارسات بالكهرباء كالعادة.. بعد تلك الجلسة التى كانت عامة لكل من رافقه الزنزانة.. كانت بمثابة تحية كما قال الضابط الذى أمر بذلك الإجراء الترفيهى..

تلك الزنزانة التى جمعتهم كانت بداية ظهور واضح لفكرة الثورة التى ترسخت فى أذهانهم.. كانت فرصة عظيمة للبوح بمكنون كل واحد فيهم..

لم يهتموا بأن الزنزانة مراقبة من قِبل الضابط المسؤول عنهم.. أجمعوا على شئ آخر غير التغيير.. أجمعوا على أن جهاز الصعق الجديد كان رديئًا هذه المرة.. فلكل منهم خبراته السابقة في غياهب أمن الدولة..

* * *

مضت الأيام الأولى في تحقيقات يومية.. و جدالات تنتهي دومًا بجلسة كهرباء أو ببعض الضرب المؤلم من قِبل السادة المعذبين.. أو بعض الجلدات البسيطة تتراوح ما بين الخمسين و المائة..

دخل الضابط و ألقى ببعض الأوراق و الأقلام على منضدة وضعت في غرفة كاحلة تخلو من الضوء غير شعاع صادم موجه إلى وجه أحمد.. لم يستطع أن يرى وجه المحقق هذه المرة من الضوء.. كاد ذلك الضوء يفتك بمقلتيه و لكنه حاول ألا يبدى ضعفًا.. كان الضابط يداعبه بذلك الضوء.. و يضحك منه كلما شعر بضعفه..

- ألم تكف بعد يا أبو حميد؟

- ألا تبعد هذا الضوء قليلًا عني..

سكت (الضابط) قليلًا و أمسك بالقلم الذى أمامه على المنضدة.. ثم أخذ القلم و وضعه في فمه.. ثم أخذ يكسر القلم بأسنانه.. و أخيرًا ألقى به على الأرض.. لم يتكلم أحمد خلال ذلك الصمت.. و لم يعقب على الأمر.. ثم تكلم الضابط و بصوت هادئ..

- هل ستختصر الأمر على نفسك.. أم ستضطرني لــــ...؟

- لم تجدوا أى شئ عندى فى البيت.. و لا أظن أنى متهم

- ما علاقتك بخالد سعيد؟

- لم أعرفه يومًا

- إذًا.. لم تكتب عنه؟.. و من أين عرفت بأنه قتل؟

- من صورته

- صورته!!.. ألا تعرف أن تلك الصورة من الممكن أن تكون مزورة مثلًا بالفوتوشوب

لم يجب و ضحك بشئ من السخف

- تضحك.. نعم.. من حقك طبعًا أن تضحك.. يا سعيد.. سعيد..

دخل الشاويش سعيد الغرفة و قال :

- أمرك يا فندم

- خذ الأستاذ.. أره الجديد عندنا..

كان الجديد عندهم نوعًا جديدًا و ابتكارًا فى مجال التعذيب على مستوى العالم.. لا أعرف لماذا نتفوق فى ذلك و حسب.. فى دولة الإصلاح فيها مُلح إلى درجة لا يمكن السكوت عنها.. تلك الأموال التى تنفق فى تلك الترهات من أدوات التعذيب الفقراء أولى بها.. أما بالنسبة للتقنيات القديمة كانت أكثر تأثيرًا.. الجهاز الذى استورد من الصين كان ضعيفًا عن الذى

قبله..

* * *

- ماذا؟!!.. هل جننت؟!!

- جننت!!.. نعم جننت يا أبى.. جننت لأنى أطلب منك أن تساعد ذلك المسكين الذى هو فى السجن الآن.. جننت لأنى أؤمن بما يفعله.. و هو أيضًا مجنون.. مجنون لأنه يحاول أن يصنع شيئًا لهذا البلد.. يجمعنا الجنون إذًا.. فما قولك..

- كيف أطلب ذلك؟.. أقول لهم بالله عليكم أخرجوا ذلك الولد المسجون لأنه ضد الحكومة.. لأنه يريد أن يهدم النظام الذى أعمل معه.. النظام الذى يحمينى و يحميك.. و يحمى هذه البلد

- إذًا لماذا جعلتنا نذهب إلى أمريكا.. و نقضى هناك عمرنا.. و كلما نطلب منك أن نعود.. تتحجج بالحرية التى فى أمريكا.. و الديموقراطية التى ليست فى مصر.. أين كل ذلك الآن؟..

نفث دخان السيجار من فمه.. ثم و ضعه بهدوء على المطفأة الكريستال على مكتبه.. قام من على كرسيه بشكل عادى جدًا.. و وقف أمام جليلة واضعًا يديه خلف ظهره.. ثم قال

- كنت مخطئًا.. و الآن يمكننى أن اصلح كل هذا

ثم لطمها على وجهها بشدة فصرخت.. نظرت إليه و هى تبكى ثم

خرجت مسرعة من حجرة المكتب إلى الطابق العلوى حيث غرفتها.. حاولت أمها أن تعرف منها الأمر و لكنها لم تستطع الرد...

* * *

مرحبًا بالشيخ سوسته..

- أبو حميد.. يا أهلًا.. سبقتنى إلى هنا
- شاء الله أن يجمعنا فى زنزانة واحدة..
- لن تصدق من سيأتى لاحقًا..
- من؟
- الكونت..
- أهو أيضًا..
- نعم.. كان يأخذ جلسة الكهرباء معى
- و ما رأيك؟
- فيم؟
- الجهاز الجديد

ضحك كثيرًا لذلك القول.. كان مرحًا على غير العادة كأنه حنّ الى حياته العادية دون السحنة العابسة على الدوام.. أو لعل جلسة الكهرباء كان لها تأثير و ربما فى السجن يكون الإنسان على طبيعته دون ذلك الوجه البلاستيكى الذى يظهر به خارجه.. الوجه الذى يشكله كيف يشاء..

فيدارى به سوءات نفسه...

- لم يكن الجهاز جيدًا كالذى قبله.. معك حق..

استمر الضحك بعض الوقت حتى حضر الكونت و كما توقع حسين كان معهم فى نفس الزنزانة.. لضحكة المسجون متعة اختلاس الحرية دون أن يشعر به السجان.. لحظات فقط يملك فيها هذا العالم بالرغم من القضبان التى تحبسه...

- أهلا بالكونت..

دخل الزنزانة صامتًا و انتظر حتى أغلقت و انصرف الشاويش مصطفى.. ثم و ضع يده على فمه و ضحك بشدة حتى كاد أن يقع على الأرض من الضحك.. و قال :

- لم يكن الجهاز يعمل..

علا صوت الضحك منهم حتى سمعه الشاويش فجاء ينظر إليهم من خلف القضبان.. من كوة صغيرة جُعلت فى الباب تُفتح من الخارج.. اسكتهم ذلك بعض الشئ.. و لكن كانت المفاجأة الكبرى يومها أنهم وجدوا صبرى عبد الغفور يدخل من باب الزنزانة بعد قليل فقط.. ربما كان الأمر مقصودًا يومها.. لم يهتموا للأمر.. و لكنهم عاودوا الضحك عندما دخل صبرى و كرر نفس قولة الكونت من قبل..

- لم يكن الجهاز يعمل و لكنى تظاهرت بالتأثر من الصعق..

الفصل العشرون

لم يتوقع حينها أن يرى أستاذه في باحة السجن التي يقضون فيها ساعة كل يوم.. آخر ما كان يعرفه عن أستاذه الذى أحيا فيه روح السياسى و المناضل من أجل العدل و الحرية إنه قد سافر في بعثة إجبارية إلى خارج مصر كنوع من أنواع العزل الذى له رونق آخر.. في الحقيقة خجل أن يسأله كيف وصل الى هنا و لكنه و دون أن يسأل حصل على ما كان يطوق لمعرفته.. ما الذى أردى أستاذ السياسة إلى ذلك المكان..

اقترب منه ببطئ حين رآه مستندًا إلى أحد الجدران و قد اختار مكانًا ظهرت فيه الشمس التى لا يراها غير ساعة من النهار و تحجب عنه طيلة اليوم.. نظر إليه الأستاذ و عرفه.. ثم ابتسم ابتسامة سخرية شديدة وقال:

- يالسخرية الأيام.. بدأت ذلك..

- نعم..

- لا تسأل.. سأحكى لك كل شئ.. أنا هنا منذ أربع سنوات.. منذ أن رفضت البعثة الإجبارية التي أرسلت إليها.. لا أكلم أحدًا.. و لكن سأحكى لك ما حدث.. لا لأنى أئتمنك على سرى.. أبدًا بل إنى أريد أن أحكى لأى أحد عما حدث.. أشعر بأن أمرى قد قرب أن ينتهى و علىّ أن أبوح بما كنت

أكتمه..

كان الذهول الذى اعتلى وجه أحمد يلجمه على أن يحدث أستاذه في أى شئ فقط كان يسمع لما يقول و يصغى إليه.. تكبد قلبه حسرات على ذلك الرجل الذى لطالما كان أستاذًا له بمعنى الكلمة و ليس مجرد أحد الأساتذة ممن يدرسون فى الجامعة.. بل كان رجلًا قلّ أن نراه فى أيامنا تلك..

- أنا صلاح عبد الحميد أستاذ السياسة الدولية فى كلية اقتصاد و علوم سياسية كل ما جنيته أننى قلت الحقيقة بأن النظام يدبر لنظام إرثى مثل الذى كان فى سوريا من قبل.. بالرغم من الأمر لم يكن خفيًا إلى تلك الدرجة التى يعاقبوننى لفضحها.. ياللعار.. حقًا ياللعار.. أنا لم أهرب على فكرة.. لا بل هم من أتوا يأخذوننى من بيتى من بين أولادى فى ساعة الفجر.. هذا أمرهم منذ الاحتلال الإنجليزى.. بعد كل تلك السنوات لا نستطيع أن نغير شيئًا صنعه الاحتلال.. هل يُعقل هذا.. لك اللهَ يا مصر.. لك الله يا مصر

كان يرفع صوته و يصرخ بتلك الكلمات ثم قام يمشى بعيدًا معاودًا لزنزانته المنفردة التى ألفها و ألفته.. تأثر أحمد لحال أستاذه كما لم يتأثر بشئ من قبل حتى أنه جلس فى ركن يبكى لما آل إليه أحوال بلده و ما صنع بأستاذه الذى طالما كان بالنسبة له الأب الذى حرم منه فى طفولته.. و ربما الصديق الذى يسبقه بالخبرة و العلم فيكون له خير مستشار فى حياته..

و استحضر فى ذهنه ذكريات عدة جمعته مع أستاذه.. حين كان فى مسابقة شعرية فى الجامعة ترأسها أستاذه ذاك.. كان داعمًا له بكل ما أوتى من سلطة بالرغم من رفض اللجنة له و لشعره.. لا لسوء فيه و لكن لأن ابن السيد الدكتور العميد كان مشاركًا فى المسابقة.. و عليهم أن ينحازوا إليه.. و صور أخرى من مشورات و جلسات علم جمعت بينهم..

* * *

جلست منكمشة فى أحد أركان غرفتها بعد تلك اللطمة التى نالتها بيد أب لطالما كان حانيًا أما الآن استيقظ فيه وحش المصلحة و أسقط ما كان يدعيه طوال تلك السنوات من تحضر و فكر غربي.. كانت تلك هى حجته التى طالما كانت سببًا فى أن يظل فى الغربة سنوات طويلة.. لربما أحب أمها يومًا فى عصر كان فيه الحب مفهومًا على نحو آخر.. اليوم تتكلم المصلحة و من دونها يسقط كل شئ..

ظلت على تلك الحال أيامًا لم يكترث كثيرًا لأمرها كما كان دومًا يفعل شغلته أمواله التى يعد لها عتادًا و يرسخ قواعدها فى دنيا البزنس الحديث فى مصر المباركية التى لا تعرف غير صوت المال..

بالأمس أخبر أمها أن عليها أن تتزوج بآخر غير الذى تحب.. كان قاسيًا على أمها كما قسا عليها.. يا لجليلة المسكينة عليك أن تحيا حياة مرغمة على الأنفاس فيها...

- كما سمعت عليها أن تتزوج من ابن شكرى بك

- بأى قلب تتحدث الآن..

- بقلب المصلحة بقلب المال..

- لم أعد أعرفك.. لم أعد أعرف من هذا الذى أمامي.. كيف تجرؤ على أن تقتل قلب ابنتك.. ألهذا الحد قسّى المال قلبك؟..

- اسمعيني جيدًا.. أنا أحاول أن أجد لها حياة طيبة.. كيف ستعيش مع ابن أخيك هذا؟!.. لا يملك مال و لا يملك شيئًا.. كيف ستحيا في ذلك الحي الشعبي الذى يسكنه؟!..

- كنت محقه.. لم تعد الأب الذى أعرفه..

- دعك من كل هذا.. قُضي الأمر.. بعد غد سيأتى شكرى بك و أسرته إلى بيتنا و ستوافق على ابنه هذا.. أنا لا أريد لمالى أن يبعثر فى يد غريبة..

كان حينها إسماعيل واقفًا إلى جوار الباب يسمع ما يقوله أبوه.. لا يستطيع أن يحدثه فى الأمر.. كل ما كان يملكه حينها نظرات القسوة والاشمئزاز لما يقال.. صدمة التحول جعلته يكره ما صار إليه أبوه بعدما عادوا إلى مصر.. حتى أنه تمنى لو لم يأتوا إلى مصر...

* * *

عادة ما يتناوب الحراس بالليل على عنابر السجن و حينها يتحدث

المال.. الذى يملك المال يمكن أن تجبى إليه ثمارات كل شئ.. و ربما عظم له كما يعظم لمن سجنوه..

كانت ليلة ليلاء يدب فيها الصقيع فى أرجاء العنبر المظلم.. لم يكتفوا بما لديهم من غطاء كاد البرد أن يفتك بهم.. حاولوا أن يجدوا للأمر حدًا و لكن لا مفر من اللجوء للشاويش...

- ما هذا مائة جنيه؟.. هذه لا تكفى..

أخذ المال ووضعه فى جيبه بالرغم من أنه لا يكفى ليخرج لهم بطانية أخرى من المخزن غير التى صرفت لكل واحد منهم.. كان ذلك آخر ما يملكونه من المال على كل حال.. فأخرج لهم الشاويش بعض البطاطين المتهالكة بعدما عرف أنه آخر ما كان معهم من مال...

* * *

فى صبيحة اليوم التالى جلس إلى جوار أستاذه ليكمل ما قد بدأ بالأمس من حكايته و لكنه أردف فى حديث آخر كان الأستاذ صلاح يكره العلمانية إلى حد كبير.. كان يدعوها آلة التحطيم الذاتى.. و عندما سأله لماذا أطلق ذلك على الفكر العلمانى قال

- صاحب الفكر العلمانى يستهلك عقله فيما هو معلوم يترك الأصول و يتطرق إلى ماديات.. قد يجدى ذلك نفعًا و لكن سيسرف عمره دون أن يجد ما يبحث عنه بالرغم أنه كان أمام عينه و لا يحتاج إلى كل هذا الجهد..

الأمر أشبه بعدّ النجوم.. إحصاؤها محال و معرفة عددها علم لن ينفع كفى أن تدرك أنها كثيرة إلى درجة تعجز عن عدها.. فما رأيك فيمن قضى حياته يعد النجوم؟!!

منفعلًا فى حديثه إلى درجة أسقطت من على كتفه البطانية التى كان يضعها ليبعد عن جسده العجوز البرد في تلك الصحراء الواسعة دون أن ينتبه إلى ذلك...

- اسمح لى أستاذى أن أسألك.. لم هذا الاستسلام الذى فى عينيك؟

- و ماذا تنتظر أن يفعل عجوز مثلى؟!!.. قد قضيت حياتى أدور فى دائرة مفرغة..

- و ماذا عن تلاميذك؟

- بلادنا يا ولدى حباها الله بذاكرة السمكة.. تستيقظ كل يوم لتبدأ من جديد و ما أن يأتى الليل حتى تنسى ما قد كان.. هل تظن أن أحدًا منهم يذكرنى الآن.. لا.. لا أظن.. لن يهتم أحد لأمرى

قام من مجلسه و قال

- علىَّ أن أذهب الآن إلى زنزانتى فقد آن الوقت كى أريح و أستريح..

تلك الكلمات أحيت عند أحمد شعورًا بالقلق على أستاذه ذلك.. فقد كان

فى حالة غريبة لم يره عليها من قبل.. لطالما كان مرحًا بسّامًا و لكن من يبقى على طبعه فى سجن كئيب!!..

* * *

الريبة نحو حسين سوسته ملأت قلب أحمد منذ زمن بعيد.. من قبل حتى أن يصير الشيخ سوسته.. قبل هذا التحول الغريب فى حياة ذلك السوسته كان يعرف عنه الكثير حتى أنه كان يعرف أن عمله مع أمن الدولة كمرشد.. كيف تبدل الأمر حتى صار من المغضوب عليهم؟.. أم أن الأمر قد خالف الآن.. حاول كثيرًا أن يعرف ما وراء ذلك.. و لكنه دومًا يفشل فى الوصول..

التناقض الغريب بين الأمرين لا يتعلق بسوسته و حسب بل كان لصبرى بعض منه.. لا تخفى الصفقات ما بين الإخوان و الحكومة من قبل عن الناس.. من انتخابات مجلس الشعب و غيره.. في خضم إحكام النظام الأمنى تحكم الدولة السيطرة إذا.. تتلاعب بهم.. ربما.. أم هم يتلاعبون بالدولة.. ؟

الفصل الحادى و العشرون

- كما قلت لك لا أمل..

كان ذلك هو آخر ما وصل اليه الطبيب فى حالة سهام فقد كانت آخر فرصة لها فى الإنجاب أملها المتبقى و التى حيت من أجله.. لطالما حلمت مثل كل النساء أن تصير أُمًا.. و لكن فات الأوان الآن.. أحى ذلك فيها فطرة القلق النسائي حيال زوجها.. ماذا سيفعل حين يعرف ذلك.. كانت تلك هى المرة الأولى التى تشعر حياله بالأسف.. ربما تسرب إليها بعض الندم.. كثيرًا ما يتحول الإنسان فى شعوره.. و كثيرًا ما يندم على ما يقترفه من قرارات قد تغير حياته ثم سرعان ما يندم بعد فوات الأوان...

* * *

كانت تلك الليلة ليلة عجيبة فى صمتها.. لا أدرى من أين جاء ذلك الصمت فى جميع العنابر.. و هل الأمر مقصود حقًا.. أم أن كل المساجين قد ناموا بالرغم من أنها لاتزال الثامنة مساءً.. خرق ذلك الصمت صوت صبرى عبد الغفور الذى بدأ فى الحديث عن انتخابات البرلمان التى أوشكت أن تبدأ فى 2010 لم يكن الحديث على هذا النحو يعجب أحمد لذلك ظل صامتًا يسمع ما يقال.. أحس من كلامه أن هذه المرة الإخوان لهم فرصة أفضل من سابقتها.. فى المرة السابقة علم أن الحزب الوطنى عقد تلك الصفقة الرخيصة

معهم.. و لم يكن يظن أن تلك الفرصة ستتكرر ثانية.. فالتوريث على الأبواب و يحتاج إلى برلمان يدعمه و يساند تلك الفكرة..

كان ياسر و بالرغم من يساريته التي كان يؤمن بها.. إلا أنه ميال إلى ما يقوله صبرى عن الانتخابات.. ربما كانوا يرون فى ذلك أملًا ضعيفًا.. صرح صبرى بمكنون نفسه من عقد الصفقة تلك المرة مع الحزب الوطنى و قال صراحة إنهم سيخرقون ما اتفق عليه من عدد.. كانت تصاريح القيادات فى الجماعة تنبئ عن شئ من تهاون فى فكرة التوريث ربما لم تكن تزعجهم الفكرة.. أما عن الشيخ حسين فى حينها فكان مؤيدًا بكل ما أوتى من قوة لما يقال عن الانتخابات ملمحًا إلى أن هناك بعض المنتمين للتيار السلفى سينضمون إلى صف الإخوان..

نظرية الحكم الأبله أو ديكتاتورية البلهاء منهجًا ارتسم منذ عقود فى طريقه إلى رسم صورة أخرى لإطار الوطن كما يراه الحزب المسيطر إرضاع الناس الذل و الهوان باسم الوطن ليجعل له من التأييد ما لا يهزم.. كان هذا هو الوجه الآخر من الاستبداد باسم الدين الذى يراه جليًا في عين سوسته و صبرى.. و الغريب أن هذا التناغم بين فريقين لطالما كره كل منهم الآخر إلى أبعد الحدود حتى أن المعارك التى تحدث بينهم فى المساجد لسجال طويل يشهد عما بينهم من خلاف.. يحتاج إلى انتباه شديد وقتها..

* * *

فى خضم ذلك النقاش الحاد ما بين أهل الزنزانة الواحدة.. سمع صوت أقدام تدب فى الخارج لم يكن من المكن أن يعرفوا ما الذى يحدث بالخارج.. كانت الأقدام تمشى نحو زنزانة الأستاذ صلاح المنفردة.. سكت كل منْ فى الزنزانة يحاولون أن يسمعوا ما الذى يحدث.. صوت غريب و كأن شيئًا يحطم.. ترى ما الذى يحدث؟.. ماذا يصنعون عند الأستاذ؟.. ماذا يريدون من ذلك العجوز؟.. كانت تلك التساؤلات التى خالجت ذهن أحمد تجد أجوبة كلها مرعبة.. قضى الليل كله منتظرًا بزوغ الفجر حتى يرى ما حدث لأستاذه...

ككل يوم يأتى الشاويش و معه قائمة بأسماء المساجين فى ذلك القسم الذى كان مخصصًا لأصحاب الفكر و السياسة.. فتح باب العنبر ليخرج أحمد من زنزانته موجهًا نظره نحو زنزانة الأستاذ ليجد بابها مفتوحًا.. ثم سرعان ما نادى الشاويش الضابط المسؤول ليخبره بأن الأستاذ صلاح قد انتحر..

دخل الضابط ممسكًا بعصاه التى كانت لا تفارق إبطه.. ثم نظر إلى الجثة المعلقة فى سقف الزنزانة.. و قد سالت الدماء من عينيه.. ثم أمسك بالعصا و أخذ يحرك الجثة لتتأرجح.. شاهد أحمد ذلك من بعيد.. سرعان ما عاود الشاويش ينادى المساجين حتى يدخلوا إلى الزنازين مرة أخرى معلنًا أن ساعة الفسحة قد أُلغيت ذلك اليوم..

- أراح.. أحسن..

كان هذا ما قاله الضابط بعد ما أخذ يضرب الجثة بعصاه فتتأرجح.. كم كان الأمر قاسيًا إلى حد لا يمكن أن ينساه أبدًا ذلك الشاب.. الذى شاهد ذلك قبل أن يعاود إلى زنزانته..

نظر الضابط مبتسمًا إلى ما انتهى إليه حال ذلك العجوز ثم قال :

- شيلوه..

* * *

رغمًا عنه بدأت الدموع تنهمر من عينه و بدأ لسانه يدعو بالمغفرة لأستاذه ليجد من يوقفه عن ذلك مدعيًا أنه قد مات منتحرًا و لا ينبغى له أن يدعو له.. نبذة أخرى عن غيبة العقول فيما هو منطقى.. و هل ادعاء الضابط حقيقى و ماذا عن الصوت الذى سمع بالأمس يدخل إلى زنزانته.. و كيف إلى وهن مثله أن يصنع ذلك.. كانت حجتهم ضاحدة و قسمتهم ضيزى بالقول عن الرجل بذلك..

- حرام عليك.. من أين عرفت أنه انتحر؟.. كيف لك أن تقول هذا على رجل لطالما كان قدوة لغيره..

كان ذلك تأنيبه للكونت ياسر.. فقد قال ذلك بناء على ما سمعه من سوسته و أيده صبرى..

- قال ذلك الشيخ حسين

- الشيخ حسين!!.. حسين سوسته أصبح شيخًا

- لا تقل عنه هذا.. اسمع أنا اجد عنده من العلم الكثير حقًا.. حينما أسأله فى مسألة يجمع لى آراء العلماء.. يجعل عندى قناعة نفسية..

لم يكن يملك حينها إلا الضحك مما يقول.. و لكن منع ذلك الضحك حزنه الذى كمن فى صدره.. آثر ألا يزيد فى الجدال.. لم يكن يملك من الصبر ما يجعله يفعل ذلك.. و اكتفى بأن يدعو لأستاذه و يقرأ له الفاتحة رحمة له.. بالرغم من نظرتهم إليه شذرًا...

على كل حال لم يستمر ذلك كثيرًا فالشهر الذى قضاه فى المحبس دون جرم سرعان ما انقضى بعد ذلك.. ليعود إلى حياته من جديد...

* * *

بعد خروجه آثر أن يعتزل الناس قليلًا.. لم يكن يرى غير سهام تأتى له بالطعام.. كان ما فى نفسه كبيرًا.. و لكن لم تدم تلك العزله فبعد ذلك بثلاثة أيام فقط و جد ضيفًا عزيزًا عليه و قد صار كهلًا و أخذ منه المرض كثيرًا و لم يبق غير الشيب.. كان ذلك عم رضوان صديق والده.. قضى حياته كلها فى الخارج..

- كيف حالك أيها الرجل الطيب؟

- الحمد لله.. كما ترى هرمت يا ولدى

- لا تقل ذلك يا رجل..

- اسمع يا أحمد.. عدت لكي أموت.. أنا مريض جدًا.. و قد عشت حياة طويلة.. لم أعد أريد منها شيئًا..

- تعرف يا عم.. أنت غريب جدًا.. تقضى حياتك فى بلاد غريبة و تعود إلى هنا كى تموت..

- و ماذا أصنع يا ولدى.. منذ زمن قال لى والدك شيئًا لازلت أذكره.. قال " إن البلد صارت أشبه بالمقابر.. إما أن تحيا فيها كالميت أو تهرب ".. و أنا هربت و كان علىَّ أن أعود كى أُدفن هنا.. فهمت.. و إلا كنت سأعود ميتًا جثمانًا هامدًا كما أبوك رحمه الله...

كان ردًا غير متوقع.. لم يرد من سؤاله إلا مداعبته.. و لكن ما قاله فى جوابه كان صادمًا.. مؤلمًا بالنسبة لأحمد.. فما أحوجه لمن يسانده فى محنه المتلاحقة حياته الغريبة.. لم يختر منها شيئًا غير أنه رفض أن يحياها كما فرضت عليه...

سرعان ما استأذن ذلك الهرم من مجلسه و غادر و لكنه ترك أثرًا عميقًا فى نفس أحمد كان يحتاج لمن يذكره بوالده أو بمن يسانده لتخطّى حالة اليأس التى تملّكته بعد هذا السجن المخزى و الإفراج المشين...

الفصل الثانى و العشرون

كانت تلك هى المرة الأولى التى ينتبه إلى عينها الحزينة.. ربما ظن أن حزنها بسببه و لكن لايبدو الأمر كذلك.. فعينها التى خبرها تنبئ بشئ آخر تكتمه...

- ماذا بك يا ابنة خالتى؟
- لا شئ أبدًا..
- تكذبين.. أعرف أنك تكذبين.. قولى..
- لا أريد أن أزيد من همك..
- قولى يا سهام.. ما الأمر.. هل تشاجرت مع ماهر؟
- ماهر.. لا.. ماهر مسكين.. حُرم من آخر أمل له فى الحياة
- تقصدين الإنجاب..

نظرت إليه و كأنها تعجبت من قراءته العجيبة لما فى عينها.. ثم أومأت برأسها أن نعم.. ثم قالت

- تعرف أفكر فى أن أطلب منه الطلاق.. لا من أجلى بل من أجله هو.. لقد صرت أرضًا بورًا لا أمل فيها

حينها بَدأت بلورات الدمع تتساقط من عينها.. و كشفت عن ضعف ألحق بها بل و تملكها.. أدرك أن الحديث عن ذلك لن يأتى بغير الدموع.. كان عليه أن يعرف ما فى نفس ماهر من ذلك.. خشيت أن تخبره بالأمر هذا ما أخبرت به أحمد زارفة الدمع و فى عينها الحيرة ساطعة...

ما كان عليه حينها سوى أن يمسح الدمع عن عينها بيده.. و يأخذ يدها ليقبلها.. ربما استعان ببعض قوله لها عن أنها لطالما كانت أمًّا له..

- جليلة يا أحمد.. عليك أن تسأل عنها.. هى الآن تعرف كل شئ..

- نعم سأذهب..

* * *

كان عليه أن يطوف بقلعة حبه قبل أن يدخلها.. ربما تردد كثيرًا فى أن يدخل إلى ذلك البيت.. كان يعرف أن شيئًا ما ينتظره بالداخل.. لقد وجد فى السجن ضالته.. قرر مالا يطيق قلبه.. فقد كانت الأمور تتكشف له أكثر مما كان حرًا.. عله وجد الفرصة ليعيد التفكير فى حياته و مسارها.. حكم على نفسه حينها بالحرمان.. قد يكون ظلم النفس فى بعض الأحيان هو القرار السليم.. جليلة تستحق أن تحيا بعيدًا عن دوامته التى يغرق فيها كل يوم.. نعم أحبها كما لم يحب أحدًا من قبل.. و لكن إن ألزمها بذلك فلن يكون منصفًا...

- أحمد!!

- كيف حالك يا عمتى؟
- بخير.. تفضل.. متى خرجت؟
- منذ أيام.. لم أعد أحسب
- و ما الذى ألزمك بذلك يا ولدى؟
- أحاول أن أجد نفسى

كان رده ذاك يخرج بشئ من العنف و الألم و صوت مكتوم.. كان يشعر حينها أن حجرًا وُضع على صدره.. سمعت ذلك جليلة فجرت إلى حيث الصوت التى سمعته.. كانت تأمل أن يكون هو.. ربما كانت تنتظر منه إنقاذها من براسن حياة تكرهها.. لطالما كرهت أن تكون أمريكية.. و كرهت ما يفرضه الآن أبوها.. و ترى فيه من سيغير ما كرهته فى حياتها من قبل..

نزلت من غرفتها مسرعة حتى أنها تعثرت فى مشيتها و كادت أن تسقط أرضًا.. و لكن ذلك لم يغير من تبسم وجهها.. كان ينتظر تلك اللحظة التى يرى وجهها الباسم.. و ما أن حانت تلك اللحظة حتى نسى ما قد أتى لأجله.. أو ما كان عليه قوله حينها.. هى كذلك فقط مدت يدها تصافحه و نسيت نفسها بين عينيه.. و كأن مالا يقال بالفم يقال بالعين...

لم ينه ذلك الأمر غير صوت عمته تقول له

- تفضل بالجلوس يا ولدى..

- نعم

استفاق على تلك الكلمات.. ثم جلس و أسند ظهره على الكرسى.. و ما أن فعل حتى بدأت تساؤلات عمته الصريحة تنهال عليه..

- إلى متى ستظل على هذا الحال يا ولدى؟

- أى حال؟

- اسمع يا أحمد أنا عمتك قبل كل شئ.. ما تضيعه من عمرك هذا ستندم عليه

- و ماذا أفعل؟! !.. أقسم لكِ أننى لا أفعل شيئًا ممنوعًا أو محرمًا.. كل ما فى الأمر أننى أحاول أن أغير من حال أعانى منه كل يوم.. الأمر ليس سياسيًا يا عمتى بالقدر الذى يجعله إنسانيًا أكثر.. إلى متى سأظل و من مثلى يعيش خائفًا مظلومًا.. اجتهدت فى كل شئ فى حياتى.. حتى فى دراستى.. و لم أنل من ذلك شيئًا.. الأكبر من ذلك أننى لست على هذا الحال وحدى.. آلاف بهذا الحال.. أصبحنا فى عصر المال فيه يصنع كل شئ.. لا أستطيع أن أسكت عن ذلك أبدًا...

فى غمرة ذلك الحديث دخل زوج عمته مقاطعًا استطراده فى الأمر.. فقد كان توًا عائدًا من مصنعه الجديد.. دخل كما أى رجل ارستقراطى فى فمه السيجار المشتعل و بكل هدوء قال :

- بارك لابنة عمتك ففرحها الخميس القادم.. بالطبع أنت مدعو

لم يجد شيئًا ليفعله سوى الابتسام.. هذا سيوفر عليه الكثير.. فقط نظر إليها و قال :

- مبارك لك يا جليلة..

تلك الكلمات جعلت في عينها حيرة كبيرة.. يبدو ما يخرج من فمه صادقًا.. كانت مصدومة باستسلامه للأمر.. لم يكن ليظل أكثر من ذلك.. انتهى الأمر .. عليه أن يغادر سريعًا إلى حيث لا يعرف أين.. لذلك استأذن عمته سريعًا و خرج.. لم تأبه جليلة بشجار أبيها مع أمها و قوله لها محذرًا ألا تدخل أحمد إلى هنا ثانية.. جرت وراءه تلحق به في حديقة المنزل..

التفت إليها حين نادته و كأنه كان يحس بخطواتها المتسارعة نحوه..

- عودى الآن يا جليلة..

- لا لن أعود.. تخليت عني..؟

سكت حينما قالت ذلك.. و بدأ يبعد بعينه عنها.. فأعادت السؤال...

- انظر إلَّ.. تخليت عني..؟

- لا.. و لكن..

- و لكن ماذا؟!.. ألا تعرف ماذا سيصنعون بي؟.. كيف تستسلم بهذا الجبن؟

- ماذا تظنيني؟ هاه.. تظنيني حجرًا.. ماذا أفعل؟.. نهـرب سـويًا بعيدًا مثلًا كما في قصص الحب و الأوبـرا.. لا يـا جليلـة.. لا تكـوني ظالمـة مثلهم.. يعلم الله أنني لم أرد ذلك أبدًا.. و لكن مثلي ليس له وجود في عـالم البيزنس و المال.. أبوك لن يدع الأمر يمر.. و لـن يتركنـا أبـدًا.. الآن عنـدي معركة أكبر.. و لا ذنب لكِ في أن تُظلمي في معركتي.. آسف

- اذهب.. لا أريد أن أراك ثانية.. اذهب..

كانت عيناه تفيض من الدمع.. و لكن الأمـر أكـبر مـن أن يواجهـه.. لا ملتقى ما بين عـالمين لم يلتقيـا يومًـا.. و غـير منتظـر اللقـاء بينهمـا.. كـان التجاؤه إلى البحر يومها طويلًا.. حتى خشيت عليه سهام.. فأرسلت مـاهرًا يتفقده حيث يكون مجلسه على شاطئ الأبيض..

الفصل الثالث و العشرون

فى صغره كانت طائرات الطفولة على الشاطئ هى أمتع مشهد يمكن أن يراه.. حلم يومًا أن يطير مثلها و ربما كان ذلك المشهد فى أحلامه متكررًا.. كان يظن أن بإمكانه أن يطير يومًا حتى يلمس سقف السماء.. حاول أن يفعل كثيرًا فيأتى بطيارته الورقية التى صنع من أعواد خشبية و بعض الورق و البلاستيك ليطير معها بنظره المعلّق عليها.. فى جلسته على البحر يومها بدأت الشمس فى الرحيل و رأى بعض الأطفال يلعبون بطائراتهم ينظرون إليها عاليًا.. كان من بينهم طفل ضعيف اليد لم يستطع أن يمسك بطائرته أكثر من ذلك.. كادت أن تحمله معها بعيدًا.. لولا أنها سقطت مزقتها الريح.. و بالرغم من همه نسى كل شئ و جلس إلى جوار هذا الطفل يصنع له طائرته من جديد.. لم يستطع حينها أن يدفع عنه طفولته.. فأخذ يلعب بالطائرة.. حتى نسى الطفل الذى كان إلى جواره.. لم يستفق من تلك الغفوة الجميلة إلا بصوت الطفل يطلب منه أن يعطيه الخيط..

كان ماهر يشاهد ذلك من بعيد و لم ينتبه إليه أحمد.. و كأنه استحضر من بعض طفولته..

- ما أعظم أن تسير و معك طفولتك..

- نعم.. فقط كنت أساعد هذا الطفل.. لحظة واحدة..

التفت حينها للطفل يسأله..

- ما اسمك؟

- أحمد

مصادفات عجيبة كان يرى فيه طفولته بينما يجمعهم اسم واحد دون أن يدرى..

أراد ماهر أن يتحدث فى أمر قضية تعويض أو شئ من هذا القبيل كردا لاعتبار أحمد.. و لكنه أعرض عن ذلك..

- دعك من هذا.. منذ متى و يعوض أحد.. و عن أى شئ تريد أن تعوضنى.. عن والدى الذى مات فى غربة.. أمى التى ماتت من سوء العلاج.. عن فرصتى فى أن أكون أستاذًا بالجامعة.. عن المهانة التى ألاقيها فى كل يوم.. فى الشارع و العمل و المواصلات.. و إن عُوضت أنا فمن يعوض هؤلاء.. من يعوض ذلك الرجل الذى يمد يده كى يجد ما يأكله.. و ربما مد يده فى صندوق قمامة ليجد ما يتقوت به.. ينام فى الشارع طوال العام.. و لا يغير هذا الثوب المهترئ القذر الذى يرتديه.. صدقنى يا ماهر.. لن يسير الأمر هكذا أبدًا...

- لما تحول الأمر إلى أكبر مما يحتمل؟!

- هو كذلك.. أنا لا أحول شئ.. تلك هى الحقيقية و إن غفل الناس

عنها.. دعك من هذا أرجوك..

- أريد أن أحدثك فى شئ آخر..
- سهام.. أليس كذلك؟
- نعم.. هل أخبرتك؟؟!
- عن ماذا؟
- تريد الطلاق.. لا أعرف لما.. فى أول الأمر ظننتها تمزح و لكنها صارحتنى بطلبها ذاك..
- و هل أخبرتك عن السبب؟..
- لا.. ليتها فعلت
- تريدك أن تتزوج و تنجب طفلاً..
- طفلا!!
- نعم.. صارحها طبيبها بأن احتمال الإنجاب بالنسبة لها صار ضعيفًا جدًا
- و من قال إنى أريد أن أنجب.. ألهذا تريد الطلاق حقًا.. مجنونة
- ربما عليك أن تصارحها إذًا بذلك..
- هل أنتظرها كل ذلك العمر ثم أطلقها.. أى عقل هذا..؟!!

* * *

بدأت ملصقات الانتخابات تملأ شوارع الإسكندرية و جدرانها.. كانت المعركة على أوجها ما بين أصحاب اللّحى و شعار الإسلام هو الحل و ما بين أصحاب المال من الحزب الوطني.. الحزب الذى صار أبعد ما يمكن عن الوطنية.. الأمر كان هزليًا حقًا هل لم يعد في مصر غير تلك الأوجه.. تجار الدين و تجار الوطني.. كلتاهما تجارة رابحة فى عالم السياسة.. أما فى تلك الجولة لا أظن أن أحدهما سيربح...

على أحد اللوحات الكبرى التى كتبت على أمتار عدة من القماش.. كلمات أبدت الكثير من العبث الذى نحياه.. مرشحان اشتركا فى تلك اللوحة الكبيرة.. أحدهما مرشح الإخوان الشيخ محمود الحسينى.. ذلك الشاب اليسارى و عضو الاتحاد الاشتراكى فى مصر الناصرية.. ثم التحول التام في عصر السبعينيات.. و الآخر صديقه الحاج شريف كريم.. الموظف السابق بمصلحة الضرائب و الذى تحول بين ليلة و ضحاها إلى صاحب أكبر سلسلة محلات سوبر ماركت.. كما تشاركا من قبل فى مرحلة من التاريخ كرجال كل العصور اشتركا اليوم فى تجارة بينهما و سياسة أيضًا.. كان ذلك ينبئ عن عهد جديد أكثر ظلمة من ذى قبل.. خاصة بعد ما أعلن مبارك أن ابنه يساعده.. كما يساعد الفلاح الصغير أباه فى الحقل.. لون آخر من الكوميديا السوداء يكتب كجزء من تاريخ مصر الحديث...

* * *

سأخبرك بخبر ربما تعتبريه محزنًا.. و لكني أراه سعيدًا

- و ما تلك الأحجية؟!

- طبقًا للتحاليل الأخيرة و الأشعة.. تحول الورم مِن الحميد إلى الخبيث

- ماذا؟

- لا تخافي.. الآن يمكننا أن نستأصله.. و ينتهي المرض إلى الأبد

- و لكن يا دكتور..

- لا تخافي يا مدام.. جراحات المخ صارت أيسر بكثير من ذي قبل..

كان الخبر صادمًا.. لطالما خشيت أن تصل إلى تلك المرحلة.. المرض يتفاقم في الآونة الأخيرة حتى أنها صارت لم تعد تشعر بمبشرات النوبة كما كانت من قبل.. و كثيرًا ما سمعت عن حالات ماتت في مثل تلك الجراحة.. الآن و قد صارت الأمور إلى هذا الحد فلا حل آخر.. عليها أن تجازف بذلك و إن كان مصيرها الموت فعليها أن تستسلم لقدرها..فلم يعد تأخير الأمر لصالحها...

* * *

كانت نتيجة الانتخابات مخزية إلى درجة لم يتوقعها الإخوان.. و كانت فاضحة إلى درجة لم يستحِ منها أصحاب الوطني.. بل وكانت انتقائية

أيضًا.. فهناك الكثير من أهل الوطني استبعدوا في تلك المنافسة ما بين الوطني و الوطني.. ماذا يجعل من الأمر عبقريًا أكثر من ذلك.. كان المعيار غريبًا و فاضحًا و مفصحًا عما تواريه القلوب و لا تبح به الألسن.. معيارًا واحدًا الولاء لأمين السياسات و من حوله.. الأمر سيصير ممهدًا إلى أبعد ما يمكن أمام الرئيس الجديد و ابن الرئيس القديم بطل الحرب و السلام.. و ربما سيرث الولد ذلك من أبيه أيضًا.. فمعركة الجزائر التي كانت مسلسلاً غير منطقيًا فاضحًا للأمر أكثر من اللازم..

أيضًا تصريحات قيادات الإخوان في الجرائد عن تأييدهم لولي العهد شيئًا فاضحًا عما يدار خلف الستار.. و على هذا الحال كان العنف يبعث من جديد من قِبل كل من الطرفين...

الفصل الرابع و العشرون

بينما هو يمشى فى شوارع الإسكندرية.. وجد بائعًا للخضر وقد اتخذ من الرصيف مكانًا له.. يبدو على هيئته أنه من الصعيد.. يبيع بعض الخضر و الفاكهة التي يقتات منها و ولده الذى افترش الرصيف لينام قليلًا.. مشهد صار من الطبيعى أن تراه فى شوارع مصر كلها.. بينما هم على ذلك أتت البلدية بكل ما أوتيت من عنف تأخذ بضاعة الرجل و تحملها فى سيارة الشرطة.. حاول الرجل أن يمنع ذلك.. و لكن هيهات أن يصنع ذلك المسكين شيئًا.. قام ولده الصغير يمنع الضرب عن والده.. فنال من تلك الضربات مالا يحتمل.. سقط مغشيًا عليه.. حمله الرجل إلى المستشفى و لكن دون جدوى كان ذلك المسكين قد فارق الحياة.. فما كان من الرجل إلا أن يعود حيث كان دم ولده ليشعل النار فى جسده.. و يقف الناس من حوله يشاهدون.. لم يستطع أحمد أن يقف ليشاهد تلك المأساة.. و لم يقدر على منع الرجل.. كان عليه أن يهرب من المكان...

ظل يركض بعيدًا إلى حيث لا يعلم أين يذهب.. حتى استفاق ليجد نفسه أمام بيت عمته.. و قد صارت الزينة تضئ كل شئ.. كان يقف عند السور يشاهد من بعيد.. اليوم هو احتفال رسمى بإعدام حبه..

كان يتمنى أن يملك قلمًا ليكتب إليها من جديد شعرًا.. و لكن شيطان شعره أبى أن يرحمه مما آلم صدره.. كان قد ودعه فى أحوج أوقاته للكتابة.. و كأن هذا عقابه الذى ينزله على من ابتلى بالحب و لم يصبر.. فمثل هؤلاء يحرمون الشعر كما يحرمون الحب بعدها...

* * *

- لا يا سهام.. جراحات المخ خطرة جدًا..

- و لكني إن تخاذلت.. سيتفاقم الورم.. أتريد أن تسلمنى إلى الموت يا ماهر

- إذًا نسافر.. إلى أى مكان فيه تلك الجراحات على قدر من الكفاءة..

- لا.. لا يحتاج الأمر للسفر.. يقول الطبيب إن الأمر هيِّنٌ.. يمكن أن يجرى هنا

- و لكن..

- لا تكن كالطفل.. لكم حلمت أن أتخلص من ذلك المرض.. و كأن الله غفر لى ذنبى أخيرًا.. أريد أن أتحرر.. تعرف لست خائفة.. أشعر أننى سأطير بعيدًا من فرحتي..

ضمها إلى صدره.. سكنت بجبينها على صدره تتنسم السكينة التى بين أضلعه.. أما عنه فقد كان قلبه يخفق بشئ لا يعرفه.. يحس أن تلك الجراحة ستحول بينه و بينها.. ليته كان يملك أن يجعل كل الدنيا مسّخرة

إليها.. و لكن تعلقه بها أصبح ضرورة في حياته.. لذلك كان يخاف فراقها...

- أخبرني أحمد عما كننت في صدرك.. منذ متى و صارحتك بالإنجاب؟!

- لست عمياء يا ماهر.. أنظر إليك و أنت تضم كل طفل تراه إلى صدرك و كأنه ولدك.. أنظر في عينيك و أعرف ما بها..

- و لكنني اخترت.. اخترتك أنت.. و ملأت بك دنياى..

- و أنا عند عرضي.. إن شئت أن يكون لك ولد.. فأنا أحلك مني..

- و أنا اخترتك ثانية.. و ثالثة و رابعة و خامسة.. اختارك حتى آخر يوم في عمري..

- كم كنت غبية عندما ضيعتك في المرة الأولى.. آسفة

- لا تتأسفي.. فلقد عوضتني في المرة الثانية.. عندما تشفين.. سنسافر إلى بلاد كثيرة.. لنرى العالم من حولنا..

للمرة الأولى ساورها القلق من تلك الجراحة.. و لكن هذا القلق عاد إلى زوال حينما ذكرت أنها ستشفى من ذلك الوحش الذى قبع في حياتها سنوات طويلة.. و أحست أن الذنب الذى تحمله في سرها سيغفر عن قريب.. و سيزول شبح أمها الذى خيم عليها فأرداها...

* * *

بينما كان واقفًا عند أسوار قصرها.. كانت معركة على أوجها تدار في الداخل ما بين أبيها و بينها.. فالعريس ينتظر في الأسفل بينما العروس في غرفتها تمزق ملابسها التي أعدت ليوم خطبتها.. تقاوم احتلالها حتى الرمق الأخير فيها.. فتلك الأمريكية لم تكن من قبل سلعة يتاجرون بها.. و لن تستسلم كما استسلم.. و لكنها راوغت و صابرت حتى تنال حريتها التي على وشك أن تضيع منها إلى الأبد.. و لكن لأبيها رأى آخر.. فإرغامها كان يمكن أن يصل إلى حد قتلها.. فأني لها أن تعصي ما قد أمر.. أو تحيد عن إرادته و طموحه في السلطة و المال.. ففرارها أضحى محالًا محالًا محالًا...

- هيا يا بنيتي.. ارتدِ ذلك الفستان.. تأخرنا كثيرًا

- للمرة المائة لا.. و لن أنزل

- اسمعي يا جليلة.. أبوك ثارت غضبته و لا أعرف ماذا يمكن أن يصير..

- ماذا سيفعل إذًا.. سيرغمني على الزواج..

كان أبوها يقف عند الباب و قد ثارت غضبته.. و استيقظ جنونه الغجري من بين أضلعه ليخبر عن وحشية لم تعهدها من قبل.. دخل الغرفة و أمسك بشعرها حتى أسقطها أرضًا.. ثم لكمها في عينها اليسرى.. فتحول ما حولها إلى اللون الأحمر.. لم تستطع أن توقف سيله.. و كانت تلك محاولاتها الأخيرة و التي انهارت أمام عنفه..

و كأنها أرادت أن تثأر مما فعله.. فارتدت فستانها و رفضت أن تضع على وجهها مسحوقًا يدارى عينها الورمة و التى حال ما حولها للزرقة.. فنزلت تدارى بيدها عينها.. حتى حضرت إلى حيث منصة الإعدام و أسفرت عنها.. لتثير ضحك البعض.. و تساءل البعض الآخر...

* * *

الحزن الذى ألمّ به قسا عليه حتى أن مقاومته أنها كادت أن تنهار.. كان عليه أن يهرب إلى المكان الذى كانَ يجمعهم و إلى حيث يحب و ينسى كل شئ من حوله.. الأوبرا..

دخل متأخرًا للعرض الذى بدأ توًا.. و كأن القدر يدبر كل هذا.. عرض غادة الكاميليا.. تلك هى المرة الثانية التى يحضره.. كعادته دخل ليجلس بين الجموع.. و لم يكن أبدًا يتوقع أن يراها هناك.. كانت هى الأخرى تهرب و لكنها لم تكن تعرف أنه هناك.. دخلت و معها خطيبها كانت تجلس بالقرب منه حيث يراها.. و بينما يلوح بنظره رآها.. و كان لقاء العين قاسيًا.. كل واحدة ترمى بسهامها للأخرى.. نظرات لوم و تساءل..

و لكن تلك النظرات القاسية لم تستطع أن تحجب الدموع.. و لا تحجب تلك الزرقة التى فى وجهها.. فآلمته كما تألمها.. حتى أنه بدأ فى تحسس وجهه..

تردد أيقوم و يهرب للمرة الثانية.. أم يرضى بالقعود و يكتفى

باختلاس بعض النظرات إليها.. أمّا هى فقد حسمت الأمر بقيامها.. فقد أصدرت فى قرارة نفسها أن تنتهى من تلك الدوامة للأبد.. و آثرت حياتها حرة على أن تكبل فى أسر تكرهه..

فى اليوم التالى غادرت إلى حيث لا يعرف أحد مكانها.. بلا عودة تركت بيت أبيها الذى أرغمها على حياة لم تختارها.. و تركت من ظنت أنه تخلى عنها.. و تركت بعض كلمات على ورقة و ضعتها على البيانو الذى طالما كان لها خير صديق.. فأنغامه أصدق ما سمعت.. لذلك أمنته على رسالتها قبل الرحيل...

* * *

- هل لى أن أقول شيئًا فى الأمر؟.. أم أنك اتخذت قرارك؟

كان الخوف يسكنها كما يسكن ماهر و أحمد و لكن آثرت سهام إلا تتحدث فى الأمر مع أحمد.. فاكتفت بالسكوت على تلك الأسئلة.. فأدرك أنها قد عزمت على ذلك و لا سبيل فى الحوار عنه...

- شاء الله أن أتحرر من مرضى.. أشعر أنه أخيرًا شاء أن يغفر لى..

أدرك أحمد ما المقصد من قولتها.. و لكنه أحس أنها تستسلم لقدر.. كما اعتادت على الاستسلام إليه فالاختيار فى أمر محسوم أشبه بتغير اتجاه دوران عقارب الساعة.. لا يعيد الزمن أبدًا و لا يغير شيئًا من غروب الشمس أو شروقها...

الفصل الخامس و العشرون

كانت تذهب كل يوم وحدها في عرض من العروض التي كانت في موسم الأوبرا.. تتلمس أن تلاقيه للمرة الأخيرة.. سكن في قرارة نفسها أن عليها أن ترحل.. حقاً كان هذا القرار في طريقه للنفاذ.. ربما يوارى هذا الضعف الذى سكن عينه التي كانت تنبئ عن متمرد.. و لكن لم يعد الآن فيها غير نظرة غريبة مشوبة بالاستسلام.. كانت تكره تلك النظرة في عينه كما كرهت ما صنع أبوها.. لذلك أحست أنه قد تخلّى عنها للأبد.. في المرة السابقة كان غضبها منه لا زال متقدًا.. ربما كشفت عن عينها لتريها أنها لم تستسلم إلّا بعد محاولات عدة..

لكنه بالرغم من طول انتظارها لم يأتِ في كل مرة.. كانت حزينة و يزداد غضبها نحوه كانت تنتظره و كأنها على موعد معه.. في ذلك الوقت كان مشغولًا بحبيبته سهام.. تحاليل ما قبل الجراحة كثيرة و متعددة.. لم يكن ليتركها و هذا الهاجس يسكن صدره.. إنها لن تعود من تلك المغامرة..

أما جليلة كانت تخشى أن تواجهه في بيته.. و كأنها لا تريد أن تحضر لحظات أخرى في عينه الحزينة.. تكره عينه من بعد خروجه من محبسه.. طبيعة المرأة التي دومًا ما تبحث عن رجل قوى.. هذا التكامل

الإنسانى الذى جعل فى قلب النساء و الرجال...

° ° °

فى بداية عام جديد لا يكاد يحبو بأيام قليلة.. جاءت عمته تطرق بابه.. كانت حزينة و يبدو فى عينها البكاء.. و قبل ذلك قالت بأن ابا جليلة قد أتى معها و آثر أن ينتظر فى السيارة.. حينما علم بذلك ربما أحس بشئ ما قد حدث.. فردت عليه عمته دون أن يسأل...

- نعم يا ولدى.. فعلتها و تركت البيت.. و أظنها غادرت مصر كلها..

- مجنونة.. و ما أعلمك يا عمتى؟

- تركت هذا الظرف على البيانو قبل أن ترحل و استيقظنا لنجدها قد غادرت.. كنت آمل أن تكون قد أتتك.. و لكن لا أظنها هنا.. تركت لك هذه الورقة..

ورقة كتب فيها أبيات شعر كتبته.. أخذها و فى عينه الخجل.. و تساؤلات عمته كانت بمثابة كرباج ينزل على جسده فيصيبه بالألم.. ما آلت إليه الأمور أشعره بحقارة ما صنع.. ربما لم يعِ الأمر إلى هذا الحد من قبل.. و لكن لم يكن هذا ذنبه وحده بل كان لأبيها النصيب الأكبر من الجرم.. لذلك كان يشعر بالندم هو الآخر.. نزل مع عمته إلى السيارة حيث يجلس أبوها.. لم يكد يتحدث فقط بعض من الترحاب.. ثم قال :

- سأعود إلى أمريكا.. و سآتي بها و حينها لن أكون عِقبة أخرى في طريقك و طريقها..

لم يكن رد أحمد على الأمر مشجعًا.. زاده هروبها و انكسارًا.. كان ما يشغله كثيرًا.. هي سهام على أعتاب جراحتها الخطرة.. و مصر على أعتاب عهد ظلم جديد.. و حبه قد نحره بيده قبل أن ينحره و تضيع من أحب ضحية بين قطبين لم يتلاقيا أبدًا و لا أظنهما يفعلان...

عندما خلا إلى نفسه قرأ ما كتبته.. و تلك هي المرة الأولى و الأخيرة التي قرأ شعرها...

أذللتني برغم محبتي...

و جعلتني في سجن هوان

أفررت مني بعدما...

فتحت لي باب شجوني

و ظننت أنك بالفرار تحررني...

فأسرتني في سجن كما كنت في سجني

ضيعتني و ظننت أنه شرف...

فمنذ متى و الحب كتمان؟

كنت أطوق لرؤياك...

فلربما أرى منك خيب ظنونى

اليوم أحرمك منى إلى الأبد...

ما عدت أتملاك و تتملانى

و أعود لعالم لا حب فيه...

يحرونى من فيض جنونى

* * *

وقفت أمام مرآتها تنظر إلى وجهها و بعض علامات الزمن التى أحاطت به.. ربما رأت فى المرآة خالتها.. فقد ماتت فى مثل عمرها.. و بالرغم من اختلاف المرض و الموت.. كانت تشعر بخالتها تسكنها.. ربما تخالط الوجهين بملامح رأتها.. لم تخف حينها بل ابتسمت و كأنها اطمأنت لشئ ما لا نعرفه...

كان عليها أن تحلق رأسها.. تزيل تلك الجدائل التى لطالما أسدلتها للريح تعبث بها.. و التى سكنتها أصابع زوجها و هو يحكى لها عما كان يفقده بعيدًا عنها.. كانت تقف أمام المرآة قبل زواجها تسدل شعرها و تسرحه لساعات.. و ربما أسرت للمرآة عن أشياء تكتمها.. ذلك الشعر الذى كان سرًا لها فكانت تواريه عن الأعين و كأنه تاج ملكى...

نظرتها الأخيرة كانت مشوبة بالموت.. كان الموت يسكن عينها.. تراه فيها يرتع.. و بالرغم من ذلك.. تبث الأمل فيمن حولها.. و كأنها تعزيهم

في نفسها..

أمسكت بمكينة الحلاقة الخاصة بزوجها.. و بدأت فى أن تزيل شعر رأسها جزئًا فجزء.. يسقط على الأرض فتنظر إلى بعض الشعر الأبيض الذى تخلله.. و تشعر أنها قد عاشت طويلًا.. حتى شاب رأسها.. و بالرغم من هذا الرضا إلا أنه لم يمنع البكاء.. كانت تبكى و تدارى وجهها و كأنها صارت امرأة منزوعة الأنوثة.. شئ ما كان يخبرها أنها لم تعد كالنساء...

* * *

هذا ما أراده الحزب الوطنى حينها.. الانتصار الساحق.. أشهر قليلة و تبدأ الانتخابات الرئاسية فى هذا العام الجديد.. ليتبدل الأمر ما بين مبارك الأب و مبارك الابن.. حيث انتزاع السلطة من جذورها.. كانوا ينعقون بمبدأ جديد الجمهورية الثانية.. تذكر حينها قول الأستاذ فؤاد و هل قامت الأولى من قبل؟.. هذا ما كانوا يريدون.. و قد أحسنوا.. هذا الشعور بالهزيمة الساحقة من قبل الشعب أمام نظام أحكم كل السيطرة بالعصا.. دفع البعض لليأس إلى حيث اللاعودة.. و آخرون ممن كانوا مخلصين لغير الوطن ممن زرعوا بيننا كانوا يتلفحون نار غريبة.. هنا تتحول الخيانة إلى رأى سياسى.. ماذا سينتج هذا التجريف غير الإرهاب و التطرف فى كل الاتجاهات.. كيف يفرق البسطاء بين الحق و الضلال فى مجتمع صار ضلاله حق و حقه ضلال...

كان شيئًا ما في القدر يغلي.. الكثير يسمعه.. و الكثير يتلاعب به..
تلك هي الفرصة للطامعين.. و عز ما تأتي الفرصة مرتين...

• • •

اليوم قد حان الموعد.. كان عليها أن تكتم خوفها.. و تبدى غير ذلك إليهما.. ضحكاتها كانت رنانة على غير العادة.. ظنت أنها تدارى خوفها.. و لما حان الأمر قامت برشاقة برغم كل العقاقير التى تسرى فى دمها.. و أشارت إليهما و قالت لن أتأخر.. كانت تخادع نفسها و تكذب الهاجس الذى سكنها.. لم تعتد أن تكون جبانة لذلك عليها أن تواجه...

ساعات طويلة قضتها فى غرفة العمليات.. كانت قاتلة بالنسبة إليهما.. ماهر يقول ربما لن تخرج.. و لكن أحمد كان يسكته عن قول ذلك و إن كان يشعر بهذا القلق.. و أخيرًا فتح الباب و خرجت ممرضة و قالت :

- الحمد لله العملية نجحت..

أحيا ذلك فيهما حياة جديدة كتبت لهما.. كما كتبت لها.. تساءلا بتلهف متى ستفيق؟.. قال الطبيب

- هى فى غرفة الإنعاش الآن.. لا تقلقا ستفيق غدًا

الأسوء من البلاء انتظاره.. تلك حكمة قالها القدماء.. فما بالك بخدعة مسكينين بوهم لن يكون.. تلك حيلة الأطباء عندما يفشل الأمر حتى لا يساءل بالقانون.. و أنى لمثلهما أن يعيا حقيقة الأمر.. سيتركونها يومين

على أجهزة الإعاشة الصناعية ثم يخبراهما الحقيقة.. فلقد ماتت أثناء الجراحة...

ربما يتعلق الأمر بشعور إنسانى نبيل.. و تمهيد الأمر يكون بطريقة جيدة.. هذا فى عالم يعرف قيمة الإنسان.. أما هنا فلا...

الفصل السادس و العشرون

مر يومـان و لم تفـق.. و قـرر اليـوم أن يعلـن عـن بلائهمـا المنتظـر.. و يتصنع شيئًا من الإنسان ليستأذن في فصل أجهزة الإعاشة عنها.. لا أعـرف كيف نام خلالها ذلك الطبيب العظيم صاحب الـضمير.. أمـا همـا لم ينامـا.. ظلا واقفين ينظران إليها من خلف الزجاج.. و إلى رأسها المعصوب.. و يظنان أنها ستفيق بين لحظة و أخرى..

عندما عرف أحمد الحقيقة بكى حتى سقط أرضًـا.. أحيـا ذلـك ذكـرى أمه.. و لكن حينها كانت هي تواسيه و تمسح دمعه.. أما الآن فلا أحد.. مـا أحوجه لجليلة في تلك اللحظة و لكن قد بعد الأمر بينها و بينه.. أما ماهر فلا شئ.. لا دموع أو حزن.. ينتظر البكاء فلا دموع تذرف.. ظن حينهـا أنـه كان يخادع نفسه في حبها.. حاول حينها أن يقوم من مقعـده و لكـنْ قـدماه أبت أن تحمله بعيدًا عنها.. سقط مغشيًا عليه.. و ظل في غيـاب عـن الـدنيا أيامًا طويلة...

عندما عرفت عمته بالأمر أسرعت إليه لتكن للمرة الأولى إلى جواره فـي محنته.. شعرت بالذنب نحوه و نحو ابنتها.. كثيرًا ما لامت نفـسها علـى ذلك و كذلك زوجها الذي أسرع عائدًا لأمريكا حتى يأتي بابنته إلى مصر...

كان العزاء مهيبًا أظهر ما في أهل الحي من مروءة.. كانت بقية من حضارة لم تنتزعها بعد أوهام المال و السلطة التي تأصلت لعقود في الشارع المصري.. كان هذا ينبئ بجديد أو بقديم يحيا...

صوت الثورة قادم من بعيد.. صوت أقدام تدب في شوارع مصر تصرخ بصوت لا يخاف القوة و لا الرصاص أريد عيشًا كريمًا.. ثورة تونس كانت في أوجها في تلك الفترة.. و بدأ يظهر النعيق في إعلامنا المحلي أن مصر ليست تونس.. لم يعرفوا أنها أكبر و أقدر.. خادعوا أنفسهم و لكن لم يقدروا على خداع الناس...

* * *

لن أكذب و أقول إن الأمر قد خلا من الخبث و أنها كانت صحوة شعب من تحت الرماد خالية من كل العيوب.. لا لم تكن.. كان بينها ما شاب ذلك و وجهه.. لم يسلم الأمر من طمع.. أو من تكالب على السلطان.. و لكن كانت صيحة خالصة باسم كل واحد صدق فيها و دفع في ذلك حياته.. هنا كان الصدق حيث لا ينكره أحد إلا من حمل في نفسه شيئًا خبيثًا...

استفاق ماهر من كبوته.. ليخبره عن وصية أوصت بها سهام.. أوصت أن يتزوج..

- لا.. أنت لا تعرف ما الذي تقول.. و لا هي كانت تعرف.. أنا اخترتها و انتظرت ذلك سنوات.. حتى شاء الله أن يجمعنا.. و الآن شاء الله

أن نفترق.. سأنتظرها ثانية حتى يشاء الله أن يجمعنا ثانية..

- تلك أمانة و أنت حر فيها.. ربما أرادت أن ترفع من على كاهلك حملًا ثقيلًا.. أما أنا فعليّ أن أذهب..

- أين تذهب و تتركني؟

- عليَّ أن أكون في القاهرة..

- القاهرة.. لا هناك مظاهرات قد بدأت هناك و الأمر لم يعد على ما يرام.. انتظر حتى يهدأ الأمر..

- مظاهرات و هل خلت الإسكندرية من تلك المظاهرات .. أنت لا تفهم.. تلك ثورة.. ثورة تخرج من بين أناس ضاعوا لسنوات.. و اليوم جاء دوري..

- و ماذا لو حدث لك سوء؟

- أنا لن أعود يا ماهر.. أعرف أني لن أعود.. لا تخف لا يمنع حذر من قدر.. ربما أموت.. ربما أرجع.. هذا شئ مقدور

برغم من محاولاته لمنعه الرحيل.. و الاتصال بعمته حتى تمنعه من ذلك إلا أنه في صبيحة اليوم التالي أعد عدته و انطلق إلى حيث يجد ما يقله للقاهرة في غضون تلك الأحداث...

كان عليه قبل الرحيل أن يودع صديق قديم له.. البحر.. كيف لا ينظر

إليه للمرة الأخيرة..!!

* * *

البحر فيروز زرقته تطغى على كل شئ فيتلاشى كل لون آخر من حوله خجلاً من تلك الزرقة.. ساحرة زرقاء تنشر اللون بفرشاة الطبيعة حتى تغار السماء.. من ذلك اللون فتقبس منه بعض زرقته و تأبى الشمس أن تكون عزولاً فترتدى ثوبها بلون الشفق...

نظره بعيدًا مد البصر إلى البحر يكسبه بهجة من نوع فريد يخفق لها القلب دون أن يدرى و كأنه جعل من خفقانه أمواجًا كتلك التى تتخابط فى البحر فى يوم شتاء.. لا يفهم هذا النوع من الشجون غير النورس فيحلق فى دروب تلك اللوحة منبئًا بصوت بعيد عن وجوده على استحياء..

لا يخلو الأمر من الرقص.. بعض القوراب التى على صفحة الماء الزرقاء تداعبها الريح فتتراقص و كأنها طربت للحن الماء و صوت الموج.. ترقص دون خجل أو كأنها خجلت ألا تستجيب لذلك اللحن الطبيعى...

دام وقوفه أمام البحر حتى الليل.. حتى احتالت الزرقة للسواد.. و غابت الشمس و انتشرت من بعدها كآبة على وجه الماء الأسود.. و احتال صوت الماء الهادئ صوت وحش يخبر عن نفسه فى تلك الظلمة.. و اشتدت الريح حتى خشى الأطفال على طيارتهم الورقية.. فأخذوا يلملمونها و يرحلون.. و كان عليه هو أيضًا أن يرحل..

و كأن البحر أراد أن يودعه.. فمرت السيارة التى تقله إلى القاهرة عليه.. كان الصبح لازال فى بكورته و الشمس بادئة فى الظهور.. حاول أن يستوقف السيارة قليلاً قبل الرحيل و لكن دون جدوى.. القلق فى كل مكان و الخوف من حوله فى أعين البسطاء.. أما البحر فقد كان ساكنًا وقورًا يودعه بكل ود.. كان يحاول أن يسر للبحر سرًا قبل الرحيل.. أراد أن يحمله رسالة لمن أحب ليخبرها أنه لم يكن ليحب غيرها...

* * *

لما وصل إلى القاهرة.. كان الدخان يُشتَّم من على بعد رائحة مسيل الدموع.. كانت تملأ الشوارع و المترو.. رأى ذلك فى الإسكندرية عند مسجد القائد إبراهيم قبل الرحيل و لكن لم يكن بهذا العنفوان.. الأمر عجيب.. لماذا اختاروا مسيل الدموع.. و هل يحتاج شعبنا للدموع؟!.. و ما أكثرها عند أهل مصر.. كان من الأحرى لهم أن يختاروا نوعًا آخر.. ربما مثير الضحك.. ربما يصنع الضحك حالة من الفرحة.. خرجوا ليبحثوا عنها.. بدأ يترجل حتى الميدان.. كلما اقترب زاد الدخان حتى صارت الرؤية مستحيلة بين هذا الدخان.. و بدأ يزرف دموعه تأثرًا به.. و ربما زرفها من قبل أن يشتمه..

من بين هذا الغيوم ظهرت سيارة شرطة يركبها جندى يمسك مدفعًا لهذا الدخان كادت السيارة تلك أن تصدمه فجرى بعيدًا عنها.. ثم من بين

هذا الغيوم وجد صبرى عبد الغفور يناديه.. تعجب كيف وجده و قد أعلنت جماعته أنها لن تشارك في الأمر.. لم تحن الفرصة للتحدث عن هذا.. و لكنه ألمح إليه بأنه يحتاجه في أمر هام و سرى.. تبعه حتى دخل أحد العمارات القديمة في طلعت حرب.. صعد السلم و دخل في شقة.. وجد في تلك الشقة أناسًا كثيرة من بينهم.. الشيخ سوسته و الكونت ياسر و إبراهيم فؤاد.. كان شئ ما يدبر.. لم يفهم الأمر.. لكنه رأى بعض طلقات الرصاص التي خُبئت في مكان ما في الشقة...

- ماذا تريدون؟.. و ما هذا الرصاص؟

لم يجبه أحدُ على سؤاله.. و دون أن ينتظر الإجابة خرج من تلك الشقة ليعاود الميدان من جديد...

الفصل السابع و العشرون

فى الليل بدأ الخبر ينتشر.. المتحف المصرى يتعرض للسرقة.. قام من فوره إلى المتحف المصرى.. ليرى من يقذف مولوتوف عليه.. بين تلك الأسوار تاريخ حفظ آلاف السنوات.. من قبل أن يصل إلى هنا.. كان مشهد متاحف العراق حاضرًا عنده.. لذلك كان عليه أن يقف و من معه دون ذلك..

لم يكن الأمر كما تصور.. فسمع همهمات الناس بأنّ وحش الديكتاتورية استفاق من تابوت له وضع فى المتحف.. ليخبر عما كان فيه.. المتحف كان مرتعًا لرجال الأمن.. لم يكن أحد يعرف هل هؤلاء من زمننا أم من زمن قديم على عهدهم باقون.. كانت الأخبار تتضارب.. حتى رأى الشيخ سوسته و هو يلقى بزجاجة مولوتوف على المتحف.. فمنعه و أخذ منه تلك الزجاجة.. كان العنف باديًا فى نظرته إليه.. و لم يكن هذا وقتًا للجدل..

سرعان ما انهمر الخرطوش من قِبل الأمن و بعض طلقات الرصاص.. كان الدخان يحجب كل شئ.. صوت الرصاص من كل جانب و صوت صراخ يخرج من كل اتجاه...

عند السور الخلفى للمتحف من اتجاه ميدان عبد المنعم رياض.. كان

هذا الرجل الخمسيني ملقى على الأرض صارخًا من ألم رصاصة في قدمه كان يستغيث و من حوله يهرولون بعيدًا عن مرمى الرصاص.. أما هو لم يكن يخشى الموت.. لم يعد هناك ما يخشاه أو يخشى عليه.. كانت لديه القناعة بأن لا شرف أكبر من أن يموت هذا اليوم.. بعين جريئة كالصقر كان يتقدم نحو الرجل.. أمسك به و أخذ يجره بعيدًا عن مرمى الرصاص..

و قف صارخًا.. إسعاف إسعاف.. و لا أحد يجيب انفض من حوله كلٌ إلى حيث تحمله قدمه مهرولًا بعيدًا عن حيث يقف.. يحاول أن يسعف الرجل.. و لكنَّ شيئًا ما استوقفه.. نظر أمامه بعين دهشة.. نظرة غريبة فيها تبدو الصدمة جلية.. ثم سمع دوى الرصاص و أحس به يخرق صدره و جسده.. خمس رصاصات متعاقبة.. ثم سقط أرضًا...

* * *

كانت تشاهده حينما سقط على التلفاز.. صورته كانت واضحة.. تشعر أنه هو.. أخبار الثورة جعلت السفر مستحيلًا ما بين أمريكا و مصر.. الآن صار أيضًا لقاؤهما مستحيلًا آخر.. كان الرصاص أسرع إليه منها.. أحيانًا كثيرة لا تجرى الحياة كما نريد..

علمت عمته بالخبر منها فللمرة الأولى تحدثها و هى تبكى.. و تصرخ بقولها قتلوه.. أسرعت تبحث عنه حتى وجدته فى القصر العينى الفرنساوى و قد أُجرت له جراحات عاجلة لاستخراج الرصاص منه.. و لكن

لا أمل.. أصابت رصاصة عموده الفقرى.. فصار من الصعب نقله أو حتى شفاؤه..

- خمس رصاصات مختلفة.. ماذا صنع هذا المسكين حتى يصاب بكل هذا الرصاص.. تركنا رصاصات الخرطوش فى مكانها لا يمكننى أن أخرجها الآن من جسده.. أما الرصاص الحي فكان عليَّ أن أخرجه..

أمسك بيدها و وضع فيها الرصاص و قال

- خمسة رصاصات كل منها مختلف العيار و اتجاه التصويب و كأنهم أجمعوا على قتله...

* * *

نظرة الصدمة التى ملأت عينيه كانت وحدها كافيه لقتله.. كنت تعرف منها أن هذا يواجه الموت لا محالة.. ثم دوى صوت الرصاص فى أرجاء الساحة التى كانت قد فرغت من الناس غير هذا المسكين المصاب الذى وقع على الأرض و الضحية الكبرى أحمد طلعت.. كان صادقًا فيما قاله لماهر قبل أن يسافر.. " أنا ذاهب لأموت " و لكنه لم يتوقع أبدًا أن يكون موته على يد كل من عرف يومًا فقط لأنه أراد أن يكون حرًا...

الكل آثم الكل قاتل لا يعفى أحدًا من ذنبه.. من لم يقتل بالرصاص فقد قتله بالصمت.. ربما يكون الصمت أسرع فتكًا من الرصاص.. لم تكن الرصاصات تابعة للشرطة.. فقط واحدة منها.. فماذا عن الأخريات؟!!.. و

ما سر تلك النظرة العجيبة قبل سقوطه.. هذا سر سيظل معه للنهاية...

بالطبع كانت الغيبوبة التى ذهب فيها سرًا لا يعرفه إلا هو و لن تسنح له فرصة أبدًا ليحكى عنها.. كل ما يذكره صوت الطبيب الذى كان يخرج الرصاص من جسده.. خمس طلقات نارية من مسدسات مختلفة النوع و العيار.. أى شئ فعل ذلك المسكين لتكون تلك نهايته...

* * *

بعد ساعات طويلة فى غياب تام عن الحياة.. يفتح عينيه من جديد إلى عالم لم يظن أنه سيراه ثانية.. بدأ يتذكر مسميات الأشياء و كأنه كان غائبًا عن لغة هذا العالم.. ينظر إلى كل شئ بعينه و يتذكر اسمه.. لم تمس الرصاصات عقله.. و لكن لماذا لا يتكلم؟.. لم لا يسمع صوته؟.. يسمع أصواتًا كثيرة من حوله.. صوت رجل يحدّث امرأة.. صوتها ليس غريبًا.. تلك هى عمته.. أما عن صوت الرجل فلا يعرفه.. يبدو من صوته الغضب.. ترى ماذا حدث؟.. كان عليه أن يتذكر ماذا يكون حينها؟.. و كأنه ولد من جديد و عليه أن يدرك الحياة من جديد.. و لكن كانت تلك الحالة بعض من تأثير البنج سرعان ما انتهت.. و بدأ يتذكر الأحداث كلها.. و بدأ صوت الطبيب يعلو...

- يا سيدتى الرصاصات التى اخرجناها كما ترين ليست كلها شرطية.. أؤكد لكِ.. أنا لا أعرف ما الذى دفع من قتله لقتله..

- ألم تقل التقارير إنه جاء من الميدان؟؟..

- نعم هذا صحيح.. و لكن من أين جاء الرصاص..؟؟

في ذلك الحين حاول أن يقوم و لكن لا استجابة من قِبل قدمه أو يده أو أي شئ منه.. بل إنه لم يكن يشعر حتى بجسده.. و لا ألم...

* * *

الشجرة التي يجلس أمامها طيلة النهار.. هي وحدها ما عرفت سره.. فقد منعه الشلل الذي دب في نواخره من أي شئ.. غير أنه يحكي بلا صوت كما يتألم أيضًا.. كانت عمته تجلس إلى جواره.. و قد أخبرته أن جليلة ستعود حالما تستطيع ذلك.. فلا يزال الطيران متوقفاً.. كانت تحكي له و هو يسمع.. و لكن لا يجيب فقط يهزهز رأسه و يهمهم بكلمات لا تفهم.. فيؤثر السكوت عندما يدرك أنه عاجز حتى عن الكلام..

سمع الطبيب عندما أخبر عمته بقوله " ليته مات ".. لم يكن ذلك مؤلمًا بل كان في طريقه للاستسلام إلى موت آت.. لكنه سيترك بلده على غير ما تمنى.. و أدرك أنه لن ينال من ذلك شئ.. فقد عاش لا شئ.. و فهم أنه سيموت كذلك.. لا شئ...

انتهى الأمر.. انتهى كل ما أمله يومًا إلى لاشئ.. و الآن يجب عليه أن يرحل طفلًا صغيرًا.. ينزل من كرسيه المتحرك مترجلًا ممسكًا بيد سهام كما كان يفعل دومًا يمشي نحو باب الغرفة التي ترقد فيها جثته البالية.. ها قد

أتى ميعاد الارتحال و آن له أن يبعد عن كل ما كان من لغط الحياة...

* * *

يميل رأسه على صدره حيث وجدت مكانًا للراحة.. غيرت لحيته التى طالت منذ الحادث ملامحة بعض الشئ.. و ابتسامة رسمت على جهه.. فجعلته ساكنًا مثل طفل ينام.. ها قد وصلت جليلة من سفرها مع أبيها من جديد.. كانت تنظر إليه.. و كأن الابتسامة على وجهه معدية.. فابتسمت حين رأته.. و رأت أمها إلى جواره تجلس على كرسى و تقرأ الجريدة و حين رأتها.. قامت مسرعة إليها تقبلها.. ثم التفتت إليه لتوقظه...

- أحمد.. استيقظ يا بنى.. أحمد.. أحمد.. دكتور.. دكتور بسرعة...

ذهب كمن ذهبوا و بقى منه آخر ما كتبه على أحد مواقع التواصل الاجتماعى...

" طول عمرى عندى إحساس غريب.. نفسى أروّح.. مش عارف أروّح فين.. طول عمرى الإحساس ده بيطاردنى.. حتى و أنا فى قلب بيتى.. أنا حاسس إنى دلوقت مروّح.. "

إلى القارئ

إن شئت يوما تحدث الناس عن وطنهم فأقطع سبابة التخوين من يدك.. و إن شئت تحدثهم عن الدين فأقطع سبابة التكفير.. و إن شئت الحديث عن الثورة فأقطع عن عقلك فكرة المؤامرة.. و تذكر دوما ذلك السؤال كم يكفيك من المال لتلقى بنفسك إلى الهلاك ؟.. فالثورة لها صوت كأزيز المرجل و لا تأتى بغتة و لا يلام غير من أصّم أذنه عن سماعها.



رواية كتبت بالنسق التتابعي- أي أن أحداثها متسارعة و متلاحقة كفقاعات الماء المغلي مما يجعلها متفردة الأسلوب و تحكى عن أحداث تعاقبت قبل ثورة يناير وانتهت بها مما يجعل الترميز فيها هو سيد الرواية و أحداثها.

انتهى الأمر.. انتهى كل ما أمله يومًا إلى لا شيء.. و الآن يجب عليه أن يرحل طفلًا صغيرًا.. ينزل من كرسيه المتحرك مترجلًا ممسكًا بيد سهام كما كان يفعل دومًا يمشى نحو باب الغرفة التي ترقد فيها جثته البالية.. ها قد أتى ميعاد الارتحال و آن له أن يبعد عن كل ما كان من لغط الحياة...

و لا تنسى ذلك الأخير (الموت) الذي لا ينتظر حتى أنه قد يباغتك و هذا هو القدر بعينه بكل أبعاده التي ليس بمقدورك التحكم بأي منها.. فقط يمكنك أن تموت على مبدأ أو كالبهائم .. وهذا قدرك الذي في وسعك اختياره..

كانت تشاهده حينما سقط على التلفاز.. صورته كانت واضحة.. تشعر أنه هو.. أخبار الثورة جعلت السفر مستحيلًا ما بين أمريكا و مصر.. الآن صار أيضًا لقاؤهما مستحيلًا آخر.. كان الرصاص أسرع إليه منها.. أحيانًا كثيرة لا تجرى الحياة كما نريد..

نظر بعيدًا.. مد البصر إلى البحر، يكسبه بهجة من نوع فريد، يخفق لها القلب دون أن يدرى، وكأنه جعل من خفقانه أمواجًا كتلك التي تتخابط في البحر في يوم شتاء.. لا يفهم هذا النوع من الشجون غير النورس فيحلق في دروب تلك اللوحة منبئًا بصوت بعيد عن وجوده على استحياء..



أحمد زكريا الأمير مهندس و روائي و باحث في التراث المصري شارك بعدد من الأبحاث في التراث الإسلامي مثل البحث الذي تناول فيه حقبة المماليك سياسيا و علاقتها بأنظمة الحكم العربية على مدى التاريخ وصدر بعنوان " عندما يحكم المماليك " و شارك أيضا برواية تحكى قصة صاحب المثل "الذوق مخرجش من مصر" بعنوان "الزوق" و التي صدرت عن دار المعارف. كما صدرت له أيضا رواية أخرى عن دار المعارف بعنوان " إيفا " وتحكى قصة عالمة مصرية تم اغتيالها على يد المافيا و التي ترجمت للفرنسية والأسبانية.. كما شارك بأبحاث علمية في مجال الهندسة وترجمتها للعربية مثل " ما لا نهاية " و " نظرية الانفجار الكوني الحديثة " .

